

موسوعة

الثقافة التاريخية

والأثرية والمضاربية

التاريخ الوسيط

٧

جزيرة صقلية في  
ظل الحكم الإسلامي:  
من الفتح الإسلامي  
حتى الغزو النورماندي



أ.د. صابر دياب



موسوعة الثقافة التاريخية  
والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط

٧

# جزيرة صقلية فى ظل الحكم الإسلامى من الفتح الإسلامى حتى الغزو النورماندى (٢١٢-٤٨٤هـ) / (٨٢٧-١٠٩١م)

تأليف

د. صابر محمد دياب حسين

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة

جامعة القاهرة

فرعى الخرطوم، والفيوم

(حاليا: جامعة الفيوم)

سابقا: جامعة أم القرى بمكة المكرمة

جامعة الملك عبد العزيز بجده

المملكة العربية السعودية

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

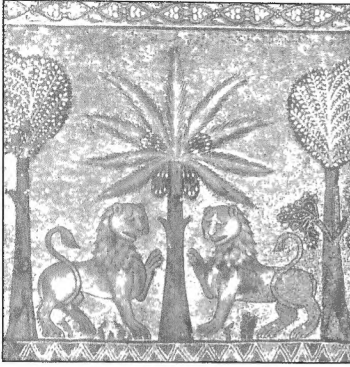
٦ أشراف جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

[www.darelfikrelarabi.com](http://www.darelfikrelarabi.com)

[INFO@darelfikrelarabi.com](mailto:INFO@darelfikrelarabi.com)



بوق من العاج صنع صقلية



فسيفساء على جدار القصر الملكي في باليرمو

## موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفني  
محمدي الدين فتحى الشلوى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر  
منى حامد عمارة

٩٤٠، ١ صابر محمد دياب حسين.

ص ١ ص ق جزيرة صقلية في ظل الحكم الإسلامى / تأليف صابر  
محمد دياب حسين. - القاهرة: دار الفكر العربى،  
٢٠٠٧ م.

أ- د ١١٢ ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة  
التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ٧).

بيلوجرافية: ص ١٠٨ - ١١٠.

تدمك: ٦ - ٢١٢٠ - ١٠ - ٩٧٧.

١ - صقلية وتاريخها السياسى. ٢ - صقلية وتاريخها  
الإسلامى. أ- العنوان. ب- السلسلة.

رقم الإيداع: ٨٣٦٣ / ٢٠٠٦

دار الفكر العربى

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

# اللجنة الاستشارية لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

- أ.د سعيد عبد الفتاح عاشور      أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة القاهرة - رئيس  
اتحاد المؤرخين العرب.      رئيس اللجنة
- أ.د عادل حسن غنيم      أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس.
- أ.د عبد الحليم نور الدين      أستاذ اللغة المصرية القديمة بكلية الآثار - عميد كلية الآثار - جامعة  
القاهرة - فرع الفيوم - مدير مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية
- أ.د إسحق عبيد      أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس.
- أ.د عصام الدين عبد الرؤوف      أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- أ.د جمال زكريا قاسم      أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس.
- أ.د عطية أحمد محمود القوصى      أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- أ.د صابر دياب      عميد كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم «سابقا»
- أ.د رافت عبد الحميد      أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - جامعة الفيوم.
- أ.د رافت عبد الحميد      عميد كلية الآداب - سابقا - جامعة عين شمس، وأستاذ تاريخ العصور  
الوسطى.

مدير التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى  
المهندس: عاطف محمد الخضرى  
سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم  
التصميم والإشراف الفني: محيى الدين فتحى الشلودى  
جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

## دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

## تقديم السلسلة



التاريخ علم من أجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلي بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعد النظر والقدرة على الاستفادة من دروس الماضي لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

إن الروايات التاريخية قد تشابه في بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته. . على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتبديل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجودونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدنا أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



## مقدمة

### جغرافية جزيرة صقلية :

ضبط «ياقوت» صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء على أن بعضهم ينطقها بالسین فيقول (سقلية). أما بالنسبة لموقع جزيرة صقلية فهي تقع في حوض البحر المتوسط، وهي أكبر جزر ذلك البحر، وتقع إلى الجنوب من إيطاليا، وهي مثلثة الأضلاع تقريباً، وتبلغ مساحتها حوالى "٢٥٨١٥" كم<sup>٢</sup>.

ومعظم سطح جزيرة صقلية جبلی إلا أن بها سهل "كتانيا" Catania الذى يمتاز بخصوبته، وتبلغ أعلى قمة بها فى جبل "إتنا" Etna الذى يُعرف بجبل النار الذى وصفه ابن جبير بقوله : "وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل النار، فشأنه عجيب وذلك أن ناراً تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العارم، فلا تمر بشيء إلا أحرقته، حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثبجه".

وإجمالاً فإن سطح جزيرة صقلية يتكون من الجبال والهضاب، وأكثر جبالها وعورة هي سلسلة الجبال التى تقع فى شمال الجزيرة، والتى يبلغ ارتفاعها حوالى ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر. ويقسم هذه السلاسل أخدود يتكون منه واديان يقسمان الجزيرة إلى نصفين، كان لهما الأثر فى تاريخ صقلية، حيث كانا ممراً للحملات العسكرية التى تعرضت لها الجزيرة طوال تاريخها. وهناك فى الشرق سلسلة جبال أخرى على الساحل؛ وجبال داخلية. أما باقى الجزيرة فهو عبارة عن هضاب وسهول صالحة للزراعة.

ومناخ صقلية معتدل كمناء شمال أفريقيا الساحلية، وأمطارها تسقط فى الخريف والشتاء، ويندر سقوطها فى فصل الصيف؛ وترى الثلوج على جبالها الشاهقة.

أما عن أهم مدن صقلية فمنها مدينة "بلرم" التى وصفها الإدريسي بقوله: "المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى والمنبر الأعظم الأعلى" وكانت تعرف بالمدينة الكبرى، وكان عليها سور عظيم من حجارة، شامخ ومنيع، وهى مدينة تجارية كبرى حيث كان يسكنها التجار.

ومن مدن جزيرة صقلية مدينة "الخالصة"، التى بناها المسلمون بعد الفتح لتكون مقراً.

للسلطان وأتباعه، كما كانت تضم الدواوين أيضاً، ومدينة "مسينى" التى تقع فى شرق الجزيرة، حيث اشتهرت بكثرة البساتين والأنهار الغزيرة، ومدينة "طبرمين" Tawrmenum وهى عبارة عن حصن منيع على جبل مطل على البحر. "و مدينة سرقوسة" التى تعد من مشاهير المدن وأعيان البلاد، ويقصدها التجار من جميع الأقطار، وهى تقع على ساحل البحر. وكذلك مدينة "مازرا" Mazara التى وصفها الإدريسي بأنها " مدينة فاضلة شامخة كاملة لا شبه لها، ولا مثال، وإليها الانتهاء فى جمال الهيئة والبناء، وهى ذات أسوار حصينة شاهقة، وديار حسنة فائقة".



ومما أشارت إليه كتب الجغرافية والبلدان من مدن صقلية نجد مدناً كثيرة منها : ثرمة - بوقارد - جلفوذى - قلعة القوارب - القارونية - شنت - بقطش - لبرى - حصن ميلاً - لياج - قطانية - حصن لنتى - نوطس - طرانيش - جبل حامد - قلعة الحمة - قلعة أوربى - برطنيق - شنس - قرينش.

ومجمل القول فإن صقلية تميزت بموقعها الاستراتيجى، وأراضيها الخصبة، حيث انعكس ذلك على تاريخها السياسى والاقتصادى. فهى جزيرة لا تبعد عن الساحل الإيطالى سوى ثلاثة كيلو مترات فقط. مما أدى إلى تسابق الدول على امتلاكها حيث حكمها الرومان، ثم البيزنطيون، ثم المسلمون.



شاطئ جزيرة  
صقلية - منظر عام





وقد وصف الجغرافيون المسلمون جزيرة صقلية، وخاصة في ظل حكم المسلمين لها. فقال الأصبخري عنها: «بَقْلِيَّةٌ من الخصب والسعة، والزرع، والمواشى، والرقيق، أكثر ما يقع منها ما يُفَضَّلُ على سائر ممالك الإسلام المتاخمة للبحر» وقال المقدسي: «إن صقلية جزيرة واسعة جَلِيَّةٌ ليس للمسلمين جزيرة واسعة جلية أجل ولا أعمر ولا أكثر مدناً منها» أما ابن جبير فقال عنها: «هب بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسن غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر

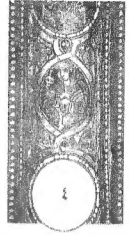
ومراد عيش يانع أخضر،

عتيقة أنيقة، مشرقة موفقة، تتطلع بمراى فنان  
وتتخايل بين ساحات ويسائط كلها بستان،  
فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن  
منظرها البارع، عجبية الشأن، قرطبية البنيان». أما صاحب كتاب نزهة المشتاق الشريف الإدريسي، والذي ألف كتابه المذكور فى جزيرة صقلية. فقال عنها: «إن صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومسكن؛ وقدима دخل إليها المتجولون من سائر الأقطار، والمترددون بين المدن والأمصار؛ وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل مآبها، وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن».



تمثال يرمز للوحدة بين إيطاليا وصقلية  
- من عصر الباروك

## التاريخ السياسى لجزيرة صقلية

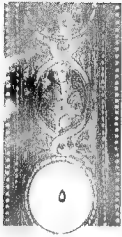


### ١- صقلية فى العهد البيزنطى

خضعت صقلية للحكم الرومانى فترة طويلة من الزمن، إلى أن تمكن القوط الشرقيون من الاستيلاء عليها فى سنة ٤٩٣م، ولكن لم تطل مدة استيلاء القوط عليها، فقد تمكن بلزاريوس قائد الإمبراطور الرومانى جستينيان (٥٢٧-٥٦٥م) من إعادة صقلية إلى حوزة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، فانضمت بذلك صقلية فى سنة ٥٣٥ م إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطية بمساعدة الصقليين أنفسهم.

قد اعتبر القوط هذا التقلب فى عواطف الصقليين وترحيبهم بالبيزنطيين نكرانا للجميل. إذ كان الصقليون قد رجوا الملك ثيودريك القوطى (رودريك) أن يعفى بلدهم من الحاميات والفرق العسكرية، فأجابهم إلى طلبهم، وترك شئونهم فى أيديهم. وكانت عاقبة هذا التسامح أن خذلوا القوط وتكبروا لهم أمام الفاتح الجديد، فلم تدافع مدينة عن نفسها ولم يتظاهر السكان بأنهم مغلوبون على أمرهم، بل إنهم عندما شهدوا تلك القلة الضئيلة يقودها بلزاريوس تظاهروا فيما بينهم لإظهار الولاء لبلزاريوس وسيده. " ولم تطل الفرحة بالصقليين فسرعان ما وجدوا أنفسهم يدفعون الضرائب الفادحة لخزينة الإمبراطور، وعين جستينيان للجزيرة حاكما "بريتورا" من الدرجة الثانية، وجعل منها ومن دلاشيا ولاية واحدة، وخضعت صقلية للأنظمة التى فرضها جستينيان على ما فتحه فى الغرب. تلك الأنظمة التى جرّت التعاسة على كل من إفريقية وإيطاليا. فاقفرت البلاد من سكانها، وتركت الولايات دون حماية، وأصبح حكمها سيئا، ورزحت البلاد تحت عبء الضرائب والاضطهاد الدينى والثورات العسكرية.

أما عن حال الجيش فخير ما يصور لنا يؤس جزيرة صقلية حينئذ أن العساكر البيزنطية كانت كالمجتمع نفسه أخلاطا من شعوب شتى، لا يمكن أن تنبت فى صدورهم محبة الوطن. كما ضعف العنصر الإغريقى الذى كان يمثل عصب الإمبراطورية، وغرقوا فى الخرافات والأساطير،



وَأَخَذُوا يَتَهَرَّبُونَ مِنَ الْجُنْدِيَّةِ، وَيُدْفَعُونَ الْقُدِيَّةَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَأَصْبَحَ التَّجْنِيدُ وَقفاً عَلَى الْبَرَابَرَةِ وَسَكَانِ الْخُدُودِ، وَلَمْ تَكُنِ الْمَوَارِدُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ تَكْفِي لِمَتَدِّ الْجِيُوشِ بِمَا نَقُومُ بِحَاجَاتِهَا، مِمَّا أَلْجَأَ الْقَادَةَ وَالْحُكَّامَ إِلَى طَرُقٍ خَطِيرَةٍ التَّنَاجُجِ، فَكَانَ الْقَائِدُ مَثَلًا يَعْهَدُ بِأَرْضِهِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْجُنُودِ كَيْ يَفْلَحُوهَا وَيَفِيدُوا مِنْ حَاصِلَاتِهَا. وَدَخَلَ فِي صَفُوفِ الْجَيْشِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ رَضُوا أَنْ يَتَقَاضُوا أَجْرًا قَلِيلًا، وَحُلَّ هَؤُلَاءِ بِجَهْلِهِمْ مَحَلَّ الْعَسْكَرِيِّينَ أَصْحَابِ الدَّرَبَةِ الْقَدِيمَةِ. وَهَكَذَا نَحُولُ الْجُنْدِ إِلَى حَاشِيَةِ الْقَائِدِ، وَلَمْ يَعُودُوا أَدَاةَ لِكَبْجِ جَمَاحِ الطُّغْغِيَانِ، بَلْ أَصْبَحُوا أَدَاةَ لِإِحْلَالِ طُغْيَانِ مَحَلِّ آخَرٍ.

وَأَمَّا الضَّرَائِبُ فَكَانَتْ جَزِيرَةً صَقْلِيَّةً -كُنِيَيرَهَا مِنْ وِلَايَاتِ الدَّوْلَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ- فَرِيْسَةً لِحْشَعِ الْمُحْصِلِيْنَ ، تَدْفَعُ ضَرِيْبَةً عَلَى الْأَمْلَاكِ، وَآخَرَى عَلَى الرُّؤُوسِ، وَإِتاَوَاتٍ عَلَى التِّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ، وَزِيَادَاتٍ إِضَافِيَّةً عَلَى الضَّرِيْبَةِ الْأَوَّلَى، وَضَرَائِبُ لِلْمَجْنَدِ، وَآخَرَى لِلْمَلَاْحِيْنَ وَأَمْوَالِ بَيْتِزِهَا الْمَوْظُفُونِ وَيَزِيدُونَ بِهَا الْحَمْلَ ثَقُلًا. وَإِذَا كَانَتِ الْحَالُ سَيِّئَةً فِي أَيَّامِ الْقُوسُوطِ ، إِلاَّ أَنَّهُا رَادَتِ سَوْءًا أَيَّامِ الْبِيزَنْطِيِّيْنَ حَتَّى أَنْ أَحَدَ الْجَبَاةِ فِي نِهَآيَةِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ أَجْبَرَ الرِّعَايَا الْعَاجِزِيْنَ عَنْ دَفْعِ الْمَالِ عَلَى تَقْدِيْمِ أُنْبَاءَتِهِمْ، وَاسْتَطَاعَ مَوْظُفٌ تَافَهُ الشَّأْنُ فِي صَقْلِيَّةٍ أَنْ يَصَادِرَ الْمُمْتَلِكَاتِ بِالْقُوَّةِ؛ وَلِلذَلِكَ يَقُولُ الْقُدَيْسُ جَرِيْجُورِيُوسُ : «نَحْتَاجُ إِلَى مَجْلَدٍ لِنَفْصَلِ الْجَزْرَ الَّذِي سَمَعْنَا بِهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ».

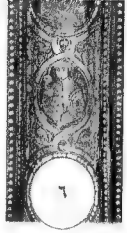
وَلَمْ تَكُنِ الدَّوْلَةُ الْبِيزَنْطِيَّةُ هِيَ الْمُسْتَغْلَ الْوَحِيدَ لَصَقْلِيَّةٍ، بَلْ كَانَتِ الْكَنِيسَةُ أَيْضًا تَشَارِكُهَا النِّفُوذَ وَالسُّلْطَانَ كَثْرَةَ أَمْلَاكِهَا فِيْهَا. فَكَانَ لِكَنِيسَةِ رُومَا وَمِيلَانُو وَرَافِنَا إِقْطَاعَاتٍ كَثِيرَةً، وَكَانَتْ أَمْلَاكُ كَنِيسَةِ رُومَا مَوْزَعَةً فِيْ أُنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ حَوْلَ سَرْقُوسَةِ وَقُطَانِيَّةٍ وَمِيْلَاوْ وَبِلَرْ وَجَرَجَنْتِ، وَكَانَ يَدِيرُهَا رَئِيسَانِ أَحَدُهُمَا فِيْ سَرْقُوسَةِ وَالثَّانِي فِيْ بِلَرْ.

وَكَانَ فِي الْأَرْضِ الْكَنِيسِيَّةِ فَلَاحُونَ يَسْمُونُ الْقَوْلُونِيِّيْنَ ، وَهَمْ طَبَقَةٌ تُشَبِّهُ الْعَبِيدَ فِيْ ارْتِبَاطِهَا بِالْأَرْضِ وَتَدْفَعُ الضَّرَائِبَ نَقْدًا أَوْ مُحْصُولَاتٍ.

وَقَدْ ظَلَّتْ صَقْلِيَّةٌ - كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلِ تَسْمِيٍّ - " أَهْرَاءَ رُومَا " يَسَافِرُ مِنْهَا كُلُّ عَامٍ أَسْطُولَانِ مُحْمَلَّانِ بِالْقَمَحِ، مَرَّةً فِي الرَّبِيعِ وَآخَرَى فِي الْخَرِيفِ، وَإِذَا غَرَقَتِ الْمَوْنُ فِي الْبَحْرِ أَوْ نُهِتَ قَبْلَ وَصُولِهَا، طُولِبَ الْكَوْلُونِيُّونَ بِالتَّعْوِيْضِ.

هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ جَامِعِي الْمَحْصُولِ كَانُوا يَتَلَاعَبُونَ بِالْمَكْيَالِ وَيَزِيدُونَ فِي نِسْبَةِ الضَّرِيْبَةِ الْمَقْرُورَةِ. فَلَمَّا اعْتَلَى جَرِيْجُورِيُوسُ الْأَوَّلُ كُرْسَى الْبَابَاوِيَّةِ سَنَةَ ٥٩٠ م وَرَأَى سَوْءَ الْحَالِ حَآوَلَ أَنْ يَصْلَحَهَا جِهْدَهُ. وَفِي الثَّمَانِيَةِ عَشْرَ شَهْرٍ الْأَوَّلَى مِنْ رِئَاسَتِهِ كَتَبَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رِسَالَةً إِلَى وَكِيْلٍ لَهُ بِصَقْلِيَّةٍ اسْمُهُ بَطْرُسُ يَحَاوُلُ أَنْ يَذْكُرَهُ بِضَرُورَةِ النَّظَرِ فِي تَظْلِمَاتِ النَّاسِ وَإِنْصَافِهِمْ وَتَحْقِيقِ الْعَدَالَةِ

فيهم ، بأن يرجع نسبة الضريبة إلى الحد المقرر، ويكثر المكايل الكبيرة، ويصدر لكل فلاح فى أراضي الكنيسة دفتر ضمان يقيد فيه ما يدفعه من ضريبة مشروعة. ومن هذه الرسائل يتبين لنا الحيف الذى كان يصيب طبقات الفلاحين .



وكان المشرفون على أراضي القديس أبولنا رس حامى رافنا يبعثون كل سفينة محملة بمئات القناطير من القمح ، والفواكه ، والخضروات، والجلود المدبوغة باللون الأرجوانى، ومحملة بالحرير اللاذوردى ، والمواد الشتوية وغيرها ، وكلها كانت توفر للكنيسة دخلاً هائلاً.

وفى أواخر القرن السابع الميلادى أصبحت الجزيرة حصناً يدفع العدوان عن الجناح الغربى للإمبراطورية ، وثغراً بين عدوين قويين، وسمح لها أن تستقل نوعاً فى تنظيم قواتها العسكرية. فأصبح لحايتها تحت رئاسة قائدها الأعلى نفوذ واسع، ولكن هذه الحامية كانت غريبة تدافع عن غير وطنها. إذ لم يشترك فيها الشعب الصقلى، بل عاش ضحية لها أو متفجعاً، وحيناً يصفق وحيناً آخر يعانى ويبكى، ولكنه لم يبادر إلى حمل السلاح أبداً.

تلك كانت حال الجزيرة بين أطماع الحكومة والكنيسة وفساد حال الجيش. ومن ثم لم يكن المجتمع الصقلى فى ظل الدولة البيزنطية مجتمعاً سعيداً ناهضاً وكانت الجزيرة تضم خليطاً من

### آثار المعابد الرومانية فى صقلية





الأجناس، أهم عناصره الإغريق والطلليان، وإلى جانبهم جماعات من اليهود تميزوا منذ البدء بانكماشهم على أنفسهم، ولكنهم لم يكونوا كثيرى العدد.

وقد حاول البابا جريجورى أن ينصفهم ويرفع عنهم الاضطهاد، كما حاول أن يُغْرِبَهُم بالتصحر حين كلف وكيله فى صقلية بحط الضرائب عنهم إن هم فعلوا (أى إذا تنصروا). ولما استولى أسقف بلرم على معبد اليهود وحوله إلى كنيسة، عد جريجورى هذا العمل حيفاً، وأمر الأسقف بأن يدفع ثمن المعبد، حيث كان رده إلى حاله الأولى عسيراً. وأضافت الحكومة إلى هذه الأجناس بعض المنفيين، إذ كانت تعتبر صقلية منفى للمذنبين والمجرمين والعساكر المتمردين.

وقد امتلأت الجزيرة بالعبيد الذين كثروا بما انضم إليهم من أسرى وملاك صغار عجزوا عن الفلاحة لما بهظتهم الضرائب. فهربوا والتمسوا لهم منازل فى مزارع الاغنياء ودفعوا حرياتهم ثمناً لذلك. وبعد فترة بدأ يقل ورود لفظ العبيد فى سجلات الأرض، وحل محله اسم «الكولونيين». ولم تحاول الكنيسة أن تصلح من حالهم، بل إن جريوريو شد وثاقهم فى أملاك البابا.

## ٢- الفتح الإسلامى لصقلية

ارتبطت الحملات الإسلامية على صقلية بنمو البحرية الإسلامية، والصراع القائم بين المسلمين والروم فى البحر المتوسط. وقد بدأت البحرية الإسلامية فى الظهور منذ أن انتصر المسلمون على البيزنطيين فى معركة «ذات الصواري» الفاصلة التى وقعت سنة ٣١هـ / ٦٥١م زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضى الله عنه، والتى كانت سبباً من أسباب السيادة الإسلامية على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.

أما أول ذكر لغزو جزيرة صقلية فى المصادر الإسلامية، فكان فى سنة ٣٢هـ / ٦٥٢م. حيث

بقايا تمثال يُقال أنه (هشام بن عبد الملك بن مروان) متحف دمشق





ذكر البلاذري أن معاوية بن خديج الكِنْدِي؛ غزا صقلية مرسلأ من قبل معاوية ابن أبي سفيان أيام إمارته على الشام زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأن تلك الحملة هجمت على معاقل الروم فى صقلية ثم عادت.

وبعد قيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ / ٦٦١م بدأت الغزوات على صقلية. فتذكر المصادر أن والى إفريقية معاوية بن خديج، أرسل قيس بن عبد الله الفزارى فى مائتى مركب إلى الجزيرة، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة وأسرى وأصنام منظومة بالجوهر. وكان ذلك سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠هـ / ٦٦١-٦٨٠م). وفى سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م، كان لعقبة بن نافع الفهري غزوة ضد الروم فى البحر، إذ تذكر المصادر أنه : «شتا بأهل مصر». ويؤكد لويس أرشيبالد أن تلك الحملة كانت على جزيرة صقلية.

كما كان لموسى بن نصير دور فى فتح جزيرة صقلية، وبناء البحرية الإسلامية. قال ابن أبى دينار : «قبل أن موسى بن نصير القرشى، هو الذى خرق البحر إلى تونس، وبنى دار الصناعة، ووضع بها مائة مركب وغزا صقلية».

ومن الحملات التى أمر بها موسى بن نصير تلك الحملة التى قادها ابنه عبد الله، واتجهت إلى صقلية سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م، وسميت تلك الغزوة «بغزوة الأشراف» نظراً لكثرة الشخصيات المرموقة المساهمة فيها، وتكلفت تلك الحملة بالنجاح. كما أرسل موسى بن نصير حملة أخرى إلى صقلية فى سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م بقيادة المغيرة بن أبى بردة فى عدد من المرات. ثم يرسل موسى بن نصير حملة أخرى فى نفس السنة إلى مدينة سرقوسة بجزيرة صقلية بقيادة عياش بن أخيل، حيث عادت تلك الحملة بغنائم كثيرة.

وبعد سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م لا نجد ذكراً فى المصادر لغزوات على جزيرة صقلية حتى بداية القرن الثانى الهجرى. ولعل سبب ذلك التوقف هو أن المسلمين فى إفريقية كانوا قد انشغلوا بفتح الأندلس مما جعل من الصعب على الجيش الإسلامى أن يقاتل على جبهتين فى وقت واحد واستمر ذلك التوقف إلى سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م، حيث أرسل يزيد بن أبى مسلم الأنصارى والى إفريقية، محمد بن أوس الأنصارى، على رأس حملة إلى صقلية مستغلاً بذلك المشكلات التى واجهت بيزنطة بسبب تمرد حاكم صقلية وعصيانه سنة ١٠٠هـ / ٧١٨م. ولكن تلك الحملة سرعان ما عادت إلى إفريقية بسبب مقتل يزيد بن أبى مسلم الأنصارى على يد حرسه من البربر، أثناء تأديته لصلاة المغرب، حيث تولى محمد بن أوس أمر إفريقية، إلى أن وصل إليها والى الجديد من قبل الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك (١٠١هـ / ٧١٩م - ١٠٥هـ / ٧٢٣م).



وفى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ / ٧٢٣م - ١٢٥ / ٧٤٢م)، قام بشر بن صفوان والى إفريقية بغزو صقلية سنة ١٠٥هـ / ٧٣٣م، وذلك قبل موته بقليل، وأصاب من غزوته مغانم كثيرة وأسر خلقاً كثيراً. وأما والى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمي فقد بعث عدة حملات إلى صقلية. حيث أرسل عثمان بن أبي عبيدة على رأس سبعمئة رجل، وقصد مدينة سرقوسة، إلا أن القائد أُسر فى هذه الغزوة سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م.

كما أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك حملة أخرى بقيادة المستنير بن الحارث وذلك فى سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م، حيث مكث القائد بصقلية إلى أن حل الشتاء، ثم قفل راجعاً.

واستمر والى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن فى إرسال الحملات إلى صقلية، وفى سنة ١١٢هـ / ٧٣٠م بعث ثابت بن خثيم على رأس حملة إلى صقلية، فأصاب منها أسرى وغنائم وعاد سالماً، كما بعث فى سنة ١١٣هـ / ٧٣١م - أحد قادته وهو عبد الملك بن قطن على رأس حملة إلى صقلية، غنمت وعادت سالمة. ثم عاد عبد الملك بن قطن على رأس حملة أخرى إلى صقلية فى سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م، وعاد أيضاً من غزوته تلك سالماً غانماً. وفى سنة ١١٥هـ / ٧٣٣م كانت آخر الغزوات على صقلية فى أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على إفريقية، حيث أرسل بكر بن سُويّد على رأس حملة إلى صقلية واشتبك مع الروم فى البحر فرموا مراكبه بالنار وأحرقوا بعض سفنه.

وفى ولاية عبيد الله بن الحبحاب، على إفريقية تتابعت الحملات لفتح صقلية، ولكسر شوكة الروم فيها. وفى السنة التى تولى فيها ابن الحبحاب إمارة إفريقية (١١٦هـ / ٧٣٤م) أرسل حملة إلى الجزيرة بقيادة عثمان بن أبى عبيدة حيث اقتتل مع الروم قتالاً شديداً، انهزم الروم على أثره. ولكن أُسرَ عدد كبير من المسلمين كان من بينهم عمر وسليمان ابنا القائد عثمان بن أبى عبيدة. ثم أرسل ابن الحبحاب حملة أخرى فى سنة (١١٨هـ / ٧٣٦م) بقيادة قثم بن عوانة الكلبي حيث أصاب من غزوته تلك وعاد سالماً غانماً.

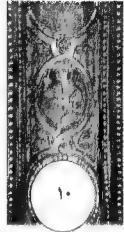
أما أهم الحملات على صقلية فى العصر الأموى، فكانت تلك الغزوة التى قررها عبيد الله ابن الحبحاب، وكلف بها حفيد فاتح المغرب حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. وكانت تلك الغزوة فى سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م، وأشرك فيها حبيب بن أبى عبيدة ابنه عبد الرحمن فى قيادة فرسان الجيش، حيث تمكن من هزيمة كل من كان فى طريقه، وحقق انتصارات عظيمة، حتى تمكن من حصار مدينة سرقوسة إلى أن صالحوه على الجزية. واستمر حبيب وابنه عبد

الرحمن فى قتال الروم بصقلية محرزين الانتصارات، إلى أن وصلهم كتاب عبيد الله بن الحبحاب يستدعيهم فيه إلى إفريقية لقمع ثورة ميسرة السقاء الخارجى، حيث تمكن منه حبيب بن أبى عبيدة بعد عودته من صقلية.

ومن الحملات الموجهة أيضاً إلى صقلية تلك الحملة التى قادها عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع، فى سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م، تمكن فيها من فتح بعض معاقل الروم وغنم وعاد سالماً. وفى سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م غزا عبد الرحمن بن حبيب صقلية كأول غزوة عليها وقعت فى العصر العباسى.. وكان القائد عبد الرحمن بن حبيب قد بلغ الذروة فى عظمته. قال ابن عذارى: «وخلف ابنه حبيباً على القيروان، فغزا تلمسان، فظفر بطوائف من البربر، وعاد إلى القيروان، ثم أغزى صقلية، ثم بعث سردانية، فقتل من بها قتلاً ذريعاً».

ثم توقفت الحملات الإسلامية على صقلية بعد سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م فترة طويلة من الزمن، فلم تُغزِ صقلية بعد ذلك إلا فى مطلع القرن الثالث الهجرى. ففى مستهل عام ١٨٤هـ (٨٠٠م) وجه الخليفة العباسى «هارون الرشيد» إلى ولاية إفريقية، إبراهيم بن الأغلب - رأس الأسرة الأغلبية - الذى اهتم بتدعيم السلطة الإسلامية فى هذه الولاية، كما عني بإنشاء الأساطيل لمد النفوذ الأعلى عبر البحر المتوسط.

ومن ناحية أخرى، فقد بات واضحاً أن القسطنطينية، لم يعد لها القدرة أو القوة الكافية، لصد غارات المسلمين على جزيرة صقلية، أو استعادة جزيرة كريت وقتذاك، أو حماية جزر بحر إيجه والسواحل، التى تعرضت لغارات المسلمين البحرية بصفة مستمرة، سواء من جزيرة كريت بعد فتحها سنة ٢١٢هـ - أو من القوات الإسلامية فى الشام ومصر.



مسجد مدينة  
القيروان





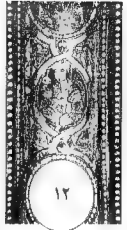
وكانت جزيرة صقلية ضمن المناطق التي شملتها الهدنة التي عقدت بين الأمير إبراهيم بن الأغلب، وبين حاكم (أو بطريق) الجزيرة سنة ١٨٩هـ (٨٠٤ - ٨٠٥م). ولكن على الرغم من أن الهدنة جُدِّدتْ لعشر سنوات أخرى تبدأ من عام ١٩٧/ ١٩٨هـ (٨١٣م)، إلا أن أثرها كان فيما يبدو معدوماً. لأنها لم تمنح مسلمي شمال أفريقيا وبحريتهم من القيام بغارات متعددة على جزيرتي كورسيكا وسردينيا، فيما بين سنتي ١٩٥، ١٩٨هـ. ورغم أن خسارة المسلمين في هذه الإغارات كانت كبيرة ؛ إلا أنها حفزتهم إلى مهاجمة صقلية سنة ٢٠٥ - ٢٠٦هـ (٨٢٠م).

ونظراً لأن الظروف التي أحاطت بالأغلبة كانت تحتم عليهم إعداد جيش قوى، والاهتمام ببناء المراكب الحربية وإعداد القوات البحرية، حتى يمكن تنفيذ مخططهم الذى كان يرمى إلى فرض سيادتهم على الخوض الأوسط للبحر المتوسط. مدفوعين إلى ذلك باعتقادهم أنه جهاد فى سبيل الله. فعملوا على إعادة بناء الأسطول الإسلامى بشمالى أفريقيا، وأقاموا دوراً لصناعة السفن فى مدينتى ترشيش (تونس حالياً)، وسوسة، ودعموها بمهرة الصناع. وبهذا أصبح لديهم أسطول قوى، يستطيع مواصلة الفتوحات الإسلامية فى الخوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط، وكان فتح صقلية من أهم هذه الفتوحات.

على أن الطريق إلى صقلية لم يكن ميسوراً، بل اكتنفه الكثير من الصعاب والعقبات، وخاصة أن الغزوات والسرايا التى اتجهت إلى الجزيرة من قبل - ابتداء من سنة ٢٢٣هـ (٦٢٥م) (٨١٣ - ٨١٤هـ) - نهبت الروم إلى المناطق التى يرمى المسلمون إلى السيطرة عليها فى البحر المتوسط. فأعدوا للأمر عدته وحصنوا جزيرة صقلية، حيث جعلوا منها قاعدة حربية أمامية لأسطولهم، الذى ترابط وحداته فيها لحماية الإمبراطورية البيزنطية. وصارت سفنهم تخرج كل عام لتطوف بالجزيرة، فضلاً عن مراقبتهم تحركات أسطول الأغلبة، وأساطيل سورية ومصر فى شرق المتوسط، وأسطول الأمويين بالأندلس.

ثم كانت سياسة بيزنطة فى صقلية من العوامل التى أدت إلى قيام ثورة يوفيموس Euyphi-mius - قائد الأسطول البيزنطى فى هذه الجزيرة -.

إذ وقع الخلاف بينه وبين واليها البيزنطى قسطنطين بن بطريق، فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثانى. فحرض يوفيموس الأغلبة على دخول الجزيرة وفتحها ووعدهم بالمساعدة نكاية فى واليها البيزنطى، على أن يكون بعد فتح الجزيرة تابعا للأغلبة فى إفريقية. وهكذا كانت هذه الظروف فرصة مواتية لبدأ الأغلبة تنفيذ خطة فتح جزيرة صقلية، منتهزين فرصة استنجد يوفيموس بهم.



وقد ذكر ابن الأثير أن الأغالبة أرسلوا - بناء على طلب يوفيموس - حملتهم الأولى بقيادة أسد بن الفرات، وحقيقة الأمر أن الأغالبة كان قد استقر رأيهم على غزو جزيرة صقلية، لأهميتها بالنسبة لسواحل شمالي الأندلس أفريقيا، وفي نفس الوقت كان الأغالبة قد استقر حكمهم وأصبحوا قادرين على فتح جزيرة صقلية.

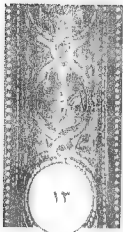
لم يكن من السهل على زيادة الله الأول، أمير الأغالبة، أن ينفرد بالبت في هذا الأمر. ولذلك جمع وجوه أهل القيروان وفقهاءها، وكان فيهم أسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد بن قادم الفقيه. ولما بحث المجتمعون موضوع فتح صقلية، انقسموا إلى فريقين: فريق لا يؤيد الغزو ولا يوصي به، وفريق متحمس للغزو ويعده ضرباً من ضروب الجهاد في سبيل الله. وقد انتهى الأمر إلى تغليب كفة الفريق الثاني.

وهكذا أصبح فتح صقلية هو شغل الأغالبة الشاغل منذ ذلك الوقت، رغبة في ضمها إلى حوزتهم. فرأى أسد بن الفرات - قاضي قضاة إفريقية - التحلل من الهدنة السابق عقدها سنة ١٨٩هـ وجددت سنة ١٩٨هـ لعشر سنوات حين أقر رسل الروم الوافدون من طرف أيغيموس بوجود أسرى من المسلمين لديهم في جزيرة صقلية، وعهد إليه أمير الأغالبة أبو محمد زيادة الله الأول في ذي الحجة ٢١٠هـ بقيادة الحملة التي أعدها لفتح الجزيرة.

وما يدل على أن فتح جزيرة صقلية كان متسماً بطابع الجهاد في سبيل الله، أن تخطيط الفتح، والتفكير فيه، كان بفضل أسد بن الفرات - قاضي قضاة إفريقية - الذي قاد بنفسه أولى حملات الفتح سنة ٢١٢هـ.

أبحر أسطول الأغالبة من قاعدته في سوسة، في ربيع الأول (٢١٢هـ - ٤ يونيو ٨٢٧م)، وكان مكوناً من مائة مركب تحمل ما بين سبعمائة وألف فارس، عدا عشرة آلاف راجل، من الجنود العرب والبربر ومن الفرس الخراسانية والأندلسيين، وهكذا تتكرر أحداث التاريخ فإذا بصقلية تغزى وتفتح ثانياً من إفريقيا كما غزيت من قبل على يد الفنيقيين، ويدخل جيش أسد بن الفرات الجزيرة من حيث دخلها الفنيقيون من قبل. وها هي جموع المسلمين تقاتل كما قاتلت من قبل، وتحمل ديناً تشدد نشر تعاليمه وبسط سيادته وألويته على الجزيرة.

لما وصلت حملة الأغالبة بقيادة أسد بن الفرات إلى صقلية، اشتبكت مع قوات حاكم الجزيرة البيزنطي في قتال، وحلت الهزيمة بالروم في أول صدام لهم مع المسلمين على أرض الجزيرة، وضيق أسد وجنده عليها الخناق - مستعيناً بإمداد من الأندلس - وصل أسطول من القسطنطينية لسنجدها. بينما كان الوباء قد تفشى في المسلمين وهلك من جراحه كثيرون كان من بينهم أسد بن الفرات نفسه.



ولما رأى المسلمون ما حل بهم من وباء نزلوا فى مراكبهم، فمنعهم الروم من الخروج، وعندئذ أحرق المسلمون مراكبهم، وقصدوا مدينة ميناء، فحاصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن.

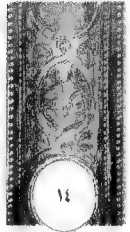
ولكن على الرغم مما لحق المسلمين من خسائر، ووفاة قائدهم (أسد بن الفرات) فإنهم واصلوا القتال، وولوا عليهم «محمد بن أبى الجوارى» - أو الحوارى - واستطاعوا بتماسكهم أن يستولوا على بعض الحصون منها حصن «مازرة» وميناء أو مينو، وجرجنت.

ولم تستطع الدولة البيزنطية بذل جهود كبيرة للدفاع عن صقلية، إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها الداخلية. ولذلك اعتبرت أحداث الفتح الإسلامى بجزيرة صقلية، فى المرتبة الثانية بالنسبة لأراضيها فى الشرق، التى كانت عرضة لتهديد العباسيين. ولكن ليس معنى هذا أنهم أهملوا مسئولية الدفاع عن صقلية، وإنما كان وضع دولتهم وقتذاك يحتم عليهم تركيز جهودهم لدرء الأخطار التى يتعرضون لها من ناحية حدود آسيا الصغرى الجنوبية.

وقد تجلّى اشتباك قوات الروم البحرية مع قوات المسلمين فى حصار سرقوسة فأسهم الأسطول البيزنطى فى الدفاع عن هذه المدينة، وألحق بالمسلمين كثيرا من الخسائر، كما نفشى فيهم الوباء، واضطروا إلى الانسحاب منها، وعوضوا خسارتهم أمام سرقوسة بفتحهم مدينة بلرم سنة ٢١٦هـ، بعد وصول الإمداد من إفريقيا.

وكان فتح مدينة بلرم Panarnwus خطوة كبيرة، مهدت السبيل لفتح سائر مدن الجزيرة فيما بعد، فليس هناك ما يعوق اتصالها بإفريقية. وبذلك أصبح فى استطاعة الفاتحين أن يحصلوا على مؤنهم وعتادهم باستمرار وفى يسر وأمان. ثم إن المنطقة المحيطة ببلرم خصبة، يمكنها سد حاجة المسلمين من المؤن والميرة. ومن ثم اتخذ المسلمون من بلرم قاعدة لهم، وبنوا لهم بها دارا لصناعة السفن. كما أخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير على أنحاء جزيرة صقلية، ثم ترجع محملة بالغنائم والأسرى.

وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التى واجهها المسلمون فى فتح مدن وحصون جزيرة صقلية، فإنهم تابعوا حملاتهم عليها. ففى سنة ٢١٧هـ - أى السنة التالية لسقوط بلرم - سار «أبو فهر بن محمد بن عبد الله التميمى» من إفريقية إلى صقلية غازيا، بعد أن هزم مطيع السهمى ابن الصمصامة، ثم قصد المسلمون قصر يانة، لكنهم لم يتمكنوا من فتحها، وأخذوا يرسلون إليها الحملة تلو الحملة، ولم يزالوا يواصلون نشاطهم حتى توفى «زيادة الله الأول» ابن الأغلب سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م).



غير أن المسلمين بصقلية لم يتمكنوا على الرغم من توالى إرسال الإمدادات إليهم من إفريقية من الاستيلاء على الجزيرة كلها آنذاك؛ لذلك استمرت حملات الأغالبة البحرية، تغزو مدن هذه الجزيرة وحصونها حتى تم للفضل بن جعفر الهمداني سنة ٢٢٨هـ - في عهد إمارة أبي العباس محمد بن الأغلب - الاستيلاء على مدينة مسينا (messina)، وهى مدينة حصينة تقع شمالي شرق صقلية.

ويدخل القوات البحرية للأغالبة، إلى مسينا، أصبح جنوب إيطاليا مهددا من ناحيتهم، ولعل هذا مما حمل نابلى على التحالف مع الأغالبة فى ذلك الوقت. ومع ذلك استمرت حركة الفتوحات فى صقلية فيما بين سنتى ٢٣٢، ٢٤٠هـ أيام الأمير محمد الأغالبى، ففتحت مدينة قطانية وغيرها فى الجانب الشرقى لصقلية

ثم تمردت مسينا فى عهد محمد الأول (٢٢٦ - ٢٤٢هـ) بعد فتحها، واستنجدت سنة ٢٣٢هـ، بالإمبراطور البيزنطى الذى وعد أهلها بالمساعدة. فلما علم المسلمون بذلك شددوا عليها الحصار بقيادة الفضل بن جعفر، حتى خضعت كل من مسينا ولنتينى التى تقع بين قطانية وسرقوسة، فى الجانب الشرقى للجزيرة، وانتهى الأمر بخضوعها للحكم الإسلامى. واستسلم أهل لنتينى مثلما خضع أهل مسينا من قبل، كما سلمت قصريانة التى تعرضت فى العام التالى (٢٣٥هـ) لحملة بحرية إسلامية لم يكن غرضها سوى الإغارة، واختبار قدرة المدينة على الصمود والدفاع.

ولما توفى الأمير «محمد الأول الأغالبى» سنة ٢٤٢هـ، خلفه " أبو إبراهيم أحمد بن محمد الأغلب، (٢٤٢ - ٢٤٩هـ). وفى عهده استمرت حركة الفتح الإسلامى لمدن صقلية وحصونها، فتابع قواده البحريون وعماله على الجزيرة العمل على إخضاع باقى نواحيها.

والحقيقة أن الفتح الإسلامى لجزيرة صقلية لقى مقاومة شديدة من القوات البحرية والبرية، التى كان يقودها حاكم الجزيرة البيزنطى، فضلاً عن الأسطول البيزنطى الذى كان يرأسو أمام الجزيرة. وكانت أعنف مقاومة لقيها المسلمون فى فتح صقلية، فى حملاتهم على مدن قصريانة وسرقوسة.

ظل المسلمون يواصلون العمل على إتمام فتح جزيرة صقلية، حتى تيسر لهم الاستيلاء على قصريانة سنة ٢٤٤هـ. وكان لسقوط هذه المدينة فى يد المسلمين أثر سيئ فى نفوس البيزنطيين، فأرسلوا أسطولاً من ثلاثمائة مركب، مشحونة بالأسكر، ومقاتلة البحر، إلى سرقوسة ليهاجموا المسلمين منها، وليثأروا لما حل بهم فى قصريانة. لكن المسلمين كانوا يراقبون كل التحركات



البيزنطية، ففاجأوا الأسطول البيزنطيّ القادم لمحاربتهم، ولم يتركوا له فرصة للدفاع وأوقعوا بهم الهزيمة ، وغنموا منه نحو مائة مركب حربي .

كان القسم الشرقي من جزيرة صقلية لا يزال ممتنعاً، ومعنا في المقاومة، وذلك بتحريض ومساعدة الإمبراطور البيزنطي . كما أن نفوذ المسلمين لم يكن قد توطد بعد في الجزيرة، بل إن كثيراً من القلاع التي استسلمت للمسلمين انتقضت عليهم ثانية سنة ٢١٤هـ . ولذلك لم يجد العباس بن الفضل بداً من أن يلجأ المسلمون إليها، كما حاول مهاجمة سرقوسة، لكن منيته عاجلته سنة ٢٤٧هـ .

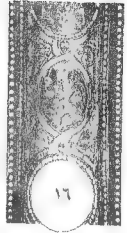
سار عبد الله بن العباس بن الفضل بن يعقوب ( ٢٤٧ - ٢٤٨هـ ) خلال هذه الفترة القصيرة التي تولى فيها ولاية صقلية للأغلبية، ومن بعده خفاجة بن سفيان على نفس نهج العباس بن الفضل في بث السرايا . ففي سنة ٢٥١هـ كانت غزوة السرية المعروفة، «بسرية ألف فارس» وذلك أن خفاجة بن سفيان - والي صقلية في إمارة «أبي الخرائيق» محمد بن أحمد بن محمد الأغلب - غزا قصر يانقة، فأفسد ررعها، وسار إلى سرقوسة، فقاتل أهلها، ثم رحل عنهم، وأنفذ ابنه محمد إليهم بسرية، فكمن لهم، وقتل منهم ما يقارب ألف فارس، ومن ثم سميت تلك السرية «سرية ألف فارس».



بقايا الحصون الرومانية والمعابد

وفي العام التالي سنة ( ٢٥٢هـ ) غزا خفاجة بنفسه، أرض الروم بصقلية، وافتتح بها حصونا كثيرة، ثم لقي حملة بيزنطية فأوقع بها الهزيمة، وغنم المسلمون كثيراً من أسلحة البيزنطيين وخيولهم . وتمكن خفاجة من دخول مدينة سرقوسة، وغنم منها مغانم كثيرة . لكنه ما لبث أن عاد إلى بلرم، قاعدته التي خرج منها منذ أول رجب سنة ٢٥٢هـ .

ولقد ظلت مدينة سرقوسة تقاوم نحو نصف قرن ( من ٢١٣ حتى ٢٦٤هـ ) - وكان أسد بن الفرات يظن أنه يستطيع فتحها في حملته على صقلية سنة ٢١٣هـ . لكن مقاومتها لم تضعف إلا حين استطاع جعفر بن محمد والي صقلية في بلرم سنة ٢٦١هـ ( ٨٧٥م ) أن يستولي



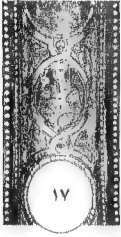
على بعض أراضيها، ولما وصلت إليها مراكب الروم أصابها المسلمون وتمكنوا من حصارها على فترات متقطعة - من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٦٤هـ - كان آخرها حصار التسعة أشهر، بقيادة أحمد بن الأغلب الذي سقطت بعده المدينة في يد المسلمين. وذلك بعد أن عانى سكانها من ويلات الحصار الشئ الكثير، ولم يفدهم المدد البيزنطي شيئا، لأن سرقوسة سقطت في يد الفاتحين المسلمين في شهر رمضان من عام ٢٦٤هـ (٨٧٧/٨٧٨ م).

كان لسقوط سرقوسة سنة ٢٦٤هـ أثر بالغ في نفوس البيزنطيين. وقد قامت الحملة التي حاصرت هذه المدينة بهجوم على مدن قطانية، وطبرمين، ورمطة، وغيرها من بلدان الجزيرة التي كانت ولا زالت بيد الروم، حتى يضعفوا من مقاومتها ثمهيدا لفتحها فيما بعد.

والواقع أن البيزنطيين لم يفرطوا في سرقوسة، بل استماتوا في الدفاع عنها. كما أن الأغالبة من ناحية أخرى - بذلوا جهدا كبيرا في سبيل فتحها، لأنهم كانوا يرون في سرقوسة شوكة تفسد على الأسطول الأغالبى سيطرته على جزيرة صقلية. وقد حاول البيزنطيون استردادها ثانية فأرسلوا في أواخر سنة ٢٦٦هـ، أسطولاً لمهاجمة المسلمين فيها، وأخذها منهم، لكن محاولتهم باءت بالفشل وأسر المسلمون نحو أربع قطع بحرية بيزنطية، واضطر البيزنطيون إلى التخلي عنها ليسيطر عليها الأغالبة، ويجعلوا منها قاعدة لأسطولهم، وقد مهد فتح مدينة سرقوسة سنة ٢٦٤هـ السبيل للاستيلاء على باقى مدن الجزيرة، ولذلك حفلت الفترة من سنة ٢٦٦هـ إلى ٢٨٩هـ بكثير من الحملات والسرايا، التي خرجت تغزوا أنحاء متفرقة من الجزيرة، لإخضاع باقى مدنها للمسلمين، وأهمها طبرمين، رمطة Rametta، وقطانية Catane.

فى سنة ٢٧٣هـ تعرض الحكم الإسلامى فى مدينة بلرم - عاصمة صقلية - لتمرّد أهلها على الوالى «سواده بن محمد» لكنه ما لبث أن تمكن من إخماده ولم يمض على ذلك غير قليل حتى عقد المسلمون بصقلية سنة ٢٨٣هـ صلحا مع البيزنطيين، كان من شروطه «إطلاق سراح ألف أسير مسلم، وأن تكون عندهم رهائن المسلمين فى كل شهر ثلاثة من العرب ومثلهم من البربر».

ويسدو أن الذى حمل الأغالبة فى صقلية على قبول مثل هذا الصلح مع الروم، تلك القلاقل التى بدأوا يعانون منها، بسبب انحياز بعض قبائل البربر إلى أبى عبد الله الشيعى، داعى الفاطميين ببلاد المغرب، فضلا عما نشب من خلاف بين العرب والبربر. كما كانت الحرب بين الطولونيين والأغالبة فيما بين سنتى ٢٦٧، ٢٨١هـ سببا فى وقف الحملات التى كانت تخرج لاستكمال فتح صقلية.



استقر رأى إبراهيم بن الأغلب على الخروج- بعد أن أوقعت جيوشه الهزيمة بالطولونيين فى برقة وطرابلس الغرب- لإتمام فتح جزيرة صقلية . فأنفذ ابنه عبد الله إلى صقلية سنة ٢٨٧هـ، على رأس أسطول يتكون من ١٦٠ مركبا حريبا، حاصرت طرابنه (ترابانى (Trapani) - وهى مدينة حصينة فى الطرف الشمالى الغربى لجزيرة صقلية - لكن أهل بلرم هاجموا المسلمين برا وبحرا، فتمكن منهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، وفر أكثرهم إلى القسطنطينية. ثم أعقب ذلك مسيره إلى قطنانية (Catane) على الشاطئ الشرقى لجزيرة صقلية. ولما امتنعت عليه تركها، ليغزو فى السنة التالية (٢٨٨هـ) - مدينه «زلة»، وعدة حصون أخرى وافقت على دفع الجزية للأغالبة .

وفى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨-٩٠٩م) استطاع المسلمون فتح طبرمين، فكان لنبا سقوطها أثر سيئ على نفس الإمبراطور البيزنطى . ولا غرو، فقد كانت تعد من أهم حصون جزيرة صقلية المنيعه . وكان سقوطها خاتمة فتوح صقلية التى استمرت منذ حملة أسد بن القرات سنة ٢١٢هـ حتى استيلاء المسلمين على طبرمين سنة ٢٩٦هـ .

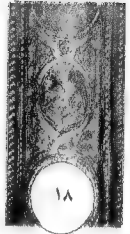
هكذا تم للأغالبة - باستيلائهم على مدينة طبرمين - السيطرة على جزيرة صقلية . ويعد هذا النصر دليلا قويا على مدى ما وصلت إليه كفاءة الأسطول الأغلبى الذى وقف بصلاية أمام البيزنطيين . وبعد أن بسط الاغالبة سلطانهم على طبرمين، بثوا ستراياهم إلى باقى جيوب صقلية التى لم تسقط، فوجدوا أهلها قد جلوا عنها .

ويعتبر فتح جزيرة صقلية من الأحداث المهمة فى تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط، إذ صارت سيادة الحوض الأوسط لهذا البحر فى يد الاغالبة، وكان يدعمهم قوة بحرية إسلامية أخرى فى الغرب، تتمثل فى الأسطول الأندلسى الذى ساندتهم فى فتح الجزيرة، واستطاع أسطول الاغالبة أن يتخذ من هذه الجزيرة قاعدة له .

وقد ظل الاغالبة يُعَوِّنون بتعزيز قواتهم، ويحرصون على تتبع حركات أعدائهم فى البلاد الأوربية إلى أن قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب، وقضى دعائها على حكم الاغالبة فى إفريقيا، ثم خلفهم الفاطميون فى مد سلطانهم إلى جزيرة صقلية .

### ٣- علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية :

أصبحت جزيرة صقلية منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ولاية تابعة لدولة الاغالبة بإفريقية، وظل الحال على ذلك إلى أن استطاع " أبو عبد الله الشيعى - داعى الفاطميين فى بلاد المغرب-



الانتصار على قوات " زيادة الله الثالث، آخر أمراء الأغالبة، في جمادى الآخر سنة ٢٩٦هـ، في " واقعة الأريس " التي أدت إلى زوال حكم الأغالبة.

ولما علم أهل صقلية بانتصار أبي عبد الله الشيعي على الأغالبة، ثاروا على واليهم السني "الحسن بن رياح" وولوا عليهم "على بن أبي الفوارس" في رجب سنة ٢٩٦هـ، وطلبوا من أبي عبد الله الشيعي، أن يقرهم على ما فعلوه، فوافق على تعيين هذا الوالي الجديد.

شهدت جزيرة صقلية- بعد انتقال الحكم فيها من الأغالبة إلى الفاطميين- فترة (من سنة ٣٠٠-٣٢٧هـ) مشحونة بالفتن والاضطراب، ولم تكن هذه الفترة تعبيراً عن محاولات استقلالية، أو تمرداً على الحكم الفاطمي، وإنما كان الدافع إليها إما كره أهل الجزيرة لبعض ولايتهم الشيعيين، بسبب ميل مسلمي صقلية للمذهب السني والخلافة العباسية، أو تعسف الولاة.

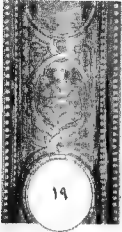
ولما آلت السلطة في بلاد المغرب إلى «عبيد الله المهدي» عين والياً وقاضياً بصقلية، دون أن يأخذ رأى أهلها. فعزل على بن أبي الفوارس - الذي ولاه الصقليون من قبل وأقرهم عليه أبو عبد الله الشيعي - وولى مكانه سنة ٢٩٧هـ الحسن بن أحمد بن أبي خنزير الكتامي.

لكن أهل صقلية ثاروا على هذا الوالي، حين أساء السيرة فيهم. مما اضطر عبيد الله المهدي، أن يسند ولاية الجزيرة إلى وال آخر، يدعى " على بن عمر البلوي، سنة ٢٩٨ وكان كسلفه عسوفاً. على الرغم مما عُرف عنه من أنه كان لينا ضعيف الإرادة، مما جعل الناس يثورون عليه، وخاصة العناصر العربية التي ساءها أن يولى الفاطميون عليهم رجلاً من البربر. ووقع اختيار زعمائهم على «أحمد بن زيادة الله بن قرهب»، ويقول المقرئ: «ثم إن أهل صقلية خالفوا عليه- أي على عبيد الله المهدي - وواليه بصقلية، فأنفذ إليها وقتل من أهلها»، ثم ينقل عن ابن الأثير بشيء من الإيضاح فيقول: «وخالف عليه أهل صقلية مع ابن قرهب؛ فأنفذ (أي عبيد الله المهدي) - إليهم أسطولاً».

كان أحمد بن قرهب طموحاً، فعمد إلى تدعيم نفوذه في جزيرة صقلية فأرسل ابنه «علياً» إلى قلعة طبرمين، ليعدها حصناً له ولحاشيته وأهل بيته، خشية من انتقاص أهل صقلية عليه، وعند أسوار طبرمين، تبين لعلي بن أحمد بن قرهب، أن الجنود من مسلمي صقلية لا يطمأن إلى جانبهم، ورغم هذا حاصر طبرمين ستة أشهر، لكن الجنود ثاروا عليه، وأحرقوا خيامه وكادوا يقتلونه.

وكانت ثورة الجنود على «ابن قرهب» بسبب ما لمسوه فيه من نزعة استقلالية، أدركها أنصار الفاطميين بجزيرة صقلية، مما دفعهم إلى التحريض ضده وضد ابنه، الذي كادوا يفتكون به لولا حماية السنين العرب بالجزيرة له.





قلعة زويلة بمدينة المهدية

- تونس

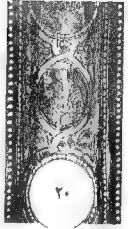


ويبدو أن «ابن قره» لم يكن يفكر - في بادئ الأمر - في الخروج على الخليفة الفاطمي، عبيد الله المهدي، إذ كتب إليه يقول : «إن أهل صقلية يكثرّون الشغب على أمرائهم، ولا يطيعونهم وينهبون أموالهم. ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقرهم ويزيل الرياسة - عن رؤسائهم -» ولكنه إرضاءً منه للعرب السنيين في جزيرة صقلية وهم الذين حموه وابنه من القتل، وخوفاً من بطشهم انحرف عن الفاطميين؛ وأعلن ولاءه للخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، فأقام له الخطبة، بدلا من الخليفة الفاطمي «عبيد الله المهدي» (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ).

وكان «ابن قره» صادقا في ولاءه للعباسين، فأنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب، واستطاع - في بادئ الأمر - أن يوقع الهزيمة بالأسطول الفاطمي عند ساحل إفريقية، ثم هاجم مدينتي طرابلس الغرب، وسفاقس، وشرع في مهاجمة المهدية، لكن الفاطميين استطاعوا - بعد أن بذلوا جهدهم في إعداد أسطولهم - أن يوقعوا الهزيمة بقوات «ابن قره» ثم لم يلبث أهل صقلية أن ثاروا عليه، فحاول أن يداريهم دون جدوى.

ولما شرع (ابن قره) في الرحيل إلى الأندلس، لاجئا إلى الأمويين - حيل بينه وبين ما يبغي، ونهب أهل صقلية ما كان له، وأسروا ابنه وقاضيه (ابن الخارى) ثم بعثوا بهم جميعا إلى الخليفة الفاطمي (عبيد الله المهدي) حيث أمر بقتلهم.

على أن أهل صقلية لم يكونوا جادين في تحولهم عن الفاطميين، وإنما كان كل ما ييغونه هو التخلص من (ابن قره). وبعد أن تم لهم ذلك أرادوا أن تصبح الحكومة في بلادهم بأيديهم، بحيث لا يكون للخليفة الفاطمي سوى السيادة عليهم، فبعثوا إليه يطلبون منه أن يرسل إليهم واليا وقاضيا.



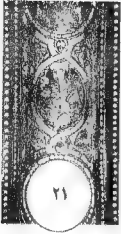
ومع أن عبيد الله المهدي نجح في القضاء على حركة ابن قرهب، إلا أن الأمور لم تستقر للفاطميين بجزيرة صقلية، وذلك بسبب المنازعات المستمرة بين أهلها المسلمين بعضهم البعض من ناحية، وبينهم المسيحيين من سكان صقلية من ناحية ثانية.

عول الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي - بعد تلك الأحداث التي واجهت الحكم الفاطمي في جزيرة صقلية - على أن يرسل مع الوالي، الذي يحكمها باسم الفاطميين، جيشاً يدفع عنه خطر الشائرين عليه، فضلاً عن اتخاذه وسيلة لقمع الولاة الفاطميين أنفسهم، إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعتهم، وكان عبيد الله المهدي صادقاً في حديثه. فما إن وصل الوالي الجديد أبو سعيد موسى بن أحمد - إلى الجزيرة سنة ٣٠٤هـ. حتى ثار عليه كثير من أهلها، ولولا مساعدة الجند الفاطمي لهذا الوالي لما استقر حكم (عبيد الله المهدي) في هذه الجزيرة.

كذلك واجه «سالم بن أبي راشد» (والي صقلية في عهد الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي) ثورة أهل مدينة (جرجنت)، فجهز إليه هذا الخليفة جيشاً حاصر المدينة الثائرة، لإخماد المتمردين من أهلها. مما اضطرهم إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطي (رومانوس الأول) فأمدهم بقوات بحرية اشتبكت مع أسطول الفاطميين : الذي تصدى للأسطول البيزنطي. وخسر الجانبان بعض سفنهما، ومع ذلك استمر حصار (جرجنت) حتى سنة ٣٢٩هـ مما اضطر أهلها إلى النزوح عنها ، وطلب من بقي منهم الأمان من أمير البحر الفاطمي.

لم ينته بذلك التمرد على الحكم الفاطمي في جزيرة صقلية ؛ بل امتد إلى مدينة بلرم، مما اضطر الوالي الفاطمي «سالم بن أبي راشد» إلى الاستنجاد بالخليفة الفاطمي - «القائم بأمر الله» فأمده بقوة على رأسها «خليل بن إسحق». لكن سالم بن أبي راشد أثار أهل بلرم ضد «خليل بن إسحق» حتى لا يخلو له أمر ولاية صقلية. وقد ساعدت الأحداث «سالم بن راشد» على تأمره ضد «خليل بن إسحق» وخاصة حين رأى أهل بلرم خليلاً يشرع في هدم أسوار مدينتهم وبنى مدينة أخرى سماها «الخالصة». لذلك خافه أهل جرجنت، وحصنوا مدينتهم، وتأهبوا لمحاربتة. فسار خليل إليهم، وحاصره ثمانية أشهر، حتى ضاقوا ذرعاً من شدة الحصار، ثم رحل عنهم سنة ٣٢٦هـ.

ولقد سعى أهل جرجنت إلى تأليب أهالي المدن الصقلية الأخرى. فثارت في سنة ٣٢٧هـ جميع القلاع بالجزيرة، مما اضطر خليل بن إسحق إلى أن يطلب من الخليفة القائم الفاطمي إمداده بنجندات، فأجاب طلبه. وقد استطاع خليل بمعاونة هذه الإمدادات أن يحمل مدن وقلاع الجزيرة على الاستسلام، بعد أن أخضع مدينة جرجنت...



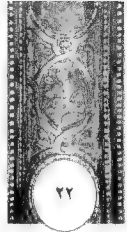
ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت شديدة الحرص - سواء في أيام عبيد الله المهدي أو من جاء بعده - على الاحتفاظ بنفوذها قويا في جزيرة صقلية، وكان يدفعها إلى ذلك عدة أسباب سياسية واقتصادية. فجزيرة صقلية ذات أهمية خاصة في نظر مختلف القوى في حوض البحر المتوسط؛ لأن موقعها الجغرافي يمكن المسيطر عليها من التحكم البحري بين شرق وغرب البحر المتوسط. ولذلك اهتم الفاطميون ببسط سيادتهم عليها لاتخاذها قاعدة لأسطولهم في البحر المتوسط، ولصد الحملات التي يوجهها البيزنطيون نحو سواحل دولتهم.

أما من الناحية الاقتصادية، فكانت أهمية جزيرة صقلية بالنسبة للفاطمين، تنبع من غناها بالأخشاب والمعادن مثل الذهب والفضة والرصاص والحديد وغيرها؛ لذلك نراهم يحرصون على بقائها خاضعة لسلطانهم لدور صناعتهم في إفريقية - سواء في المهدية أو سوسة أو المنصورية فيما بعد - بما يلزمها من مواد وأخشاب لبناء أسطولهم.

وقد استمر الفاطميون في إرسال ولايتهم إلى جزيرة صقلية، إلى أن قامت ثورة «أبي يزيد مخلد بن كيدال الخارجي»، التي شغلتهم بعض الوقت. فلما قضى المنصور الفاطمي على هذه الثورة سنة ٣٣٦هـ، عين أبا الغنائم «الحسن بن علي الكلبى» واليا على صقلية. وفي عهده تجلى النزاع بينه وبين مسيحي صقلية الذين استجدوا «بقسطنطين السابع» إمبراطور الدولة البيزنطية فأجاب طلبهم، وأرسل قواته إلى صقلية، حيث اشتبكت مع قوات الحسن الكلبى. وحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى، واضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح.

وقد عانى الحسن بن الحسين الكلبى - أثناء ولايته جزيرة صقلية - من انحراف بنى الطبرى عنه. فكانوا يكيّدون له، رغبة في خلعه من هذه الولاية. فلما علم بذلك الخليفة المنصور بالله الفاطمى (٣٣٤-٣٤١)، أمر بالقبض على إسماعيل بن الطبرى وأنصاره، فقبض الحسن عليهم واستولى على أموالهم. وبذلك تمكن الحسن الكلبى من أن يركز جهوده على ضبط الأمور في الجزيرة والقضاء على القلاقل الداخلية فيها، ليتيسر له متابعة وتنفيذ خطة غزو قلورية.

وقد أمدنا كتاب سيرة الأستاذ جوذر بتوقيع للخليفة المنصور في هذا الصدد جاء فيه توضيح للدور الذى قام به بنو الطبرى في تحريض أهل صقلية ضد والى الفاطمى في الجزيرة، وأنهم كانوا يتحركون بتأييد محمد بن عبدون - أحد أفراد هذه الأسرة الكبيرة - وكان قد احتجزه الخليفة المنصور بالله لديه في إفريقية دون أن يسى إليه لمكانته العلمية بين أهل صقلية. وفي نفس الوقت بعث إلى الحسن الكلبى يطلب إليه أن يستمر في تعقب وإخضاع بنى الطبرى، والعمل على إذعانهم للحكم الفاطمى ومثليه في الجزيرة، وأمره أن يرسل إليه في إفريقية بكل من يقبض عليه.



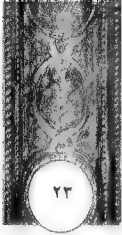
منهم، ليعاقبهم ويعددهم عن الجزيرة، كما أمره الخليفة المنصور بالله الفاطمي - على لسان كاتبه جو ذر- أن يقضى على اضطرابات جزيرة صقلية. يدلنا على ذلك قول جو ذر عن المنصور الفاطمي : «وَحُضُّهُ (أى يا جو ذر أنصححه) - حضاً شديداً على الصرامة، وإن يكون مرأً مريراً شرساً، (أى أن يكون شديد البأس عليهم صارماً فى حكمة لهم)، فإنه فى بلد قد أسكرت أهله النعم، وأبطرهم الإحسان، واعتادوا مع خليل بن إسحق أشياء لا يخرجها من رءوسهم إلا السيوف. ولكن صعباً مستصعباً (أى يضرب بشدة) على كل فاجر وداعر، وليرفع عنهم السوط ويستعمل فيهم السيف».

هكذا تولى «الحسن الكلبى» ولاية جزيرة صقلية، فى وقت كانت فيه الجزيرة تموج بالاضطرابات والقتال. فعمل الحسن الكلبى على إقرار الأمور فيها، وتابع خطة الغزو والفتح فى قلورية. واستمر على نشاطه هذا حتى توفى الخليفة الفاطمى المنصور بالله سنة ٣٤١هـ، وولى الخلافة المعز لدين الله الذى أقره على ولاية صقلية.

لقد أدت السياسة التى اتبعها عبيد الله المهدي، والتى تقضى بضرورة وجود حامية فاطمية، إلى جانب ولاية صقلية لمعاونتهم فى صد الأخطار الخارجية والقضاء على الاضطرابات الداخلية، إلى إتاحة الفرصة لهؤلاء الولاة للسيطرة عليها. وتجلّى ذلك بوجه خاص فى عهد ولاتها من الأسرة الكلبية، الذين تمتعوا بقدر كبير من الاستقلال. وظلوا يلون حكم هذه الجزيرة باسم الفاطميين، حتى بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة سنة ٣٦٣هـ.

لم تتمتع جزيرة صقلية بالاستقرار فى عهد المعز لدين الله بسبب تهديد البيزنطيين لها. فقد نقبض الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (٩١٤-٩٥٩م) الهدنة التى عقدها مع الحسن الكلبى - وقد شجعه على ذلك ما أحرزه من نصر على العباسيين والحمدانيين فى منطقة شرق البحر المتوسط.

وهكذا أصبحت جزيرة صقلية ميداناً للصراع بين قوتين كبيرتين فى حوض البحر المتوسط هما :الدولة الفاطمية، والدولة البيزنطية. فلم يدخر أباطرة بيزنطة - مثل قسطنطين السابع، ونقفور فوكاس، وميخائيل الرابع - وسعا فى محاولة السيطرة عليها؛ فأرسلوا الحملات البحرية الواحدة بعد الأخرى لزعزعة الفاطميين عن الجزيرة ولكن دون جدوى. بل إن الحسن بن على الكلبى أوقع بهم الهزيمة واستطاع أن يخرجهم من ترمينى (Termini) ثم عبر خليج مسينى (Messinala) - (بين جزيرة صقلية وقلورية) - وانضم إلى جيوش أخيه (عمار بن أبى الحسن الكلبى). وما زال الحسن الكلبى وأخوه عمار يغزوان مدن قلورية، مدينه بعد مدينة، والإمدادات الفاطمية تتوالى عليهما من إفريقية، حتى اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى إرسال رسول من قبله



يدعى (سقراط) يطلب الهدنة والصلح سنة ٣٤٧هـ. وكانت هذه الهدنة مماثلة لتلك التى سبق لإبرامها بين كل من الخليفة المنصور الفاطمى، والإمبراطور قسطنطين السابع، وتقضى بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين.

وبذلك ينتهى الدور الأول من هذه الحروب، التى شنها ولاية كل من القائم، والمنصور، والمعز لدين الله الخلفاء الفاطميين، على البيزنطيين - فى صقلية - والتى انتهت بزوال الخطر البيزنطى من هذه الأرجاء إلى حين. ولا ريب أن الفضل فى ذلك كله إنما يرجع إلى إخلاص ولاية صقلية من الأسرة الكلبية وهم «الحسن بن على الكلبى» وأخوه عمار وغيرهما من أفراد الأسرة.

ولكن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع لم يقف مكتوف اليدين أمام الخليفة الفاطمى المعز لدين الله وولاته على صقلية : بل عقد اتفاقا مع الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ هـ - ٣٢٠ هـ) ، يتضمن توحيد جهودهما فى محاربة الفاطميين والحد من نشاطهم فى البحر المتوسط. وذلك بأن يقوم الأسطول البيزنطى بمهاجمة سواحل شمال إفريقيا الفاطمية وجزيرة صقلية من الشرق، بينما يُطبقُ الأسطولُ الأموى من قواعده - فى ستة والمائة - على هذه المناطق من ناحيتها الغربية، غير أن جيوش وأساطيل المعز لدين الله الفاطمى، تمكنت من إحباط هذا التحالف ؛ فانحصرت على الروم والأمويين معا سنة ٣٤٤هـ، مما اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى عقد هدنة مع الفاطميين لمدة خمس سنوات.

تعاقب على جزيرة صقلية من بنى الحسن الكلبى، نحو عشرة ولاء، ابتداء من سنة ٣٣١هـ، وقد شهدت الجزيرة خلال حكمهم تقدما كبيرا فى نواحي الحياة المختلفة، واهتماما بالعمل على استقرار الأمور، وتوطيد سيادة الفاطميين.

وفضلا عما تقدم فإن الكلبيين - وعلى رأسهم الحسن بن على الكلبى (٣٣٦-٣٤٢هـ) - تمكنوا منذ بداية حكمهم من إرضاء أهل الجزيرة. كما عمل هذا الوالى على توثيق الصلة بين وجوه صقلية والخليفة الفاطمى المعز لدين الله، فسار بصحبة ثلاثين رجلا منهم إلى الخليفة الفاطمى لمبايعته، فأكرمهم وخلع عليهم.

أما عن «أحمد بن الحسن بن على الكلبى» الذى ولى صقلية سنة ٣٤٢هـ فكان كأيها الحسن فى ولائه للخلافة الفاطمية، كما اقتدى به فى سياسته خلال ولايته على هذه الجزيرة. فتابع حركة الغزو والفتح فى حوض البحر المتوسط وخاصة فى قلورية، وعمل على تدعيم النفوذ الفاطمى بالجزيرة، فأعاد فتح طبرمين، واستولى على قلعتها الحصينة سنة ٣٥١هـ، بعد أن حاصرها سبعة أشهر، مما اضطر أهلها إلى طلب الأمان، على أن يكونوا رقيقا وتصير أموالهم لهم. ثم أطلق

عليها اسم «المعزية» نسبة إلى المعز لدين الله. وتبع ذلك استسلام بعض المدن للقوات الفاطمية، بينما استنجد أهل مدينة رمطة (Rmetta) بالإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس ٣٥٢هـ (٩٦٣م).

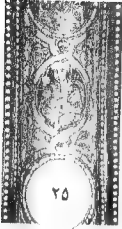


وقد ظلت المنطقة الشرقية من جزيرة صقلية، بما فيها مدينة رمطة، لا تعترف إطلاقاً بسلطان المسلمين على الجزيرة، إلى آخر أيام السيادة الفاطمية على جزيرة صقلية. لذلك لم يجد ولاه الجزيرة الفاطميين بدأ من الاكتفاء بأخذ الجزية عن أهالي هذه المنطقة، ووجهوا اهتمامهم إلى متابعة الفتح في جنوب إيطاليا وقلورية، فضلاً عن التأهب لصد البيزنطيين وإحباط أى محاولة من ناحيتهم، لاسترداد أية منطقة من صقلية.

ولما بلغ «أحمد بن الحسن بن علي الكلبى»، استعداد البيزنطيين بالهجوم على جزيرة صقلية، طلب سنة ٣٥٣هـ إمدادات بحرية وبرية من الخليفة الفاطمي بأفريقيا، ليدعم بها قواته فى مواجهة الهجوم البيزنطي المتوقع. فأمدّه المعز لدين الله ببعض النجدة، لعلمه بالخطر الذى يهدد السيادة الفاطمية على جزيرة صقلية، وقد وصل الاسطول الفاطمي بقواته من إفريقيا إلى جزيرة صقلية، قبل وصول الحملة البيزنطية المهاجمة. ثم دارت معركة عنيفة بين مسلمي الجزيرة تعاونهم القوات الفاطمية، وبين مسيحيي الجزيرة يؤازرهم البيزنطيون، وتمكن المسلمون فى صقلية بمساعدة الجند الفاطمي من إحراز النصر على القوات المعادية.

ولقد رأى الفاطميون أن فتح مدينة رمطة لا يقل أهمية عن فتحهم مدينة طبرمين. ولذلك سيروا إليها جيشاً بقيادة «الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسن الكلبى». وقد اعتقد نقفور فوكاس إمبراطور الروم، أن كثرة قواته وضخامتها يضمنان النصر على قوات الفاطميين، أما الخليفة الفاطمي المعز لدين الله: فقد اهتم بإرسال إمدادات من القوات البرية و البحرية إلى جزيرة صقلية، لمعاونة قوات الحسن بن عمار المحاصرة لرمطة، فوصلت إليها هذه القوات سنة ٣٥٣هـ. ثم قسمت القوات الفاطمية إلى قسمين: أحدهما بقيادة الحسن بن عمار الذى عهد إليه بمهمة حصار مدينة رمطة، وثانيهما بقيادة الحسن بن علي الكلبى الذى عسكر بها فى بلم. وكانت القوات الفاطمية بصفة عامة - سواء تلك التى قدمت من إفريقية، أو التى كانت فى صقلية نفسها - حنة الأعداد.

كان البيزنطيون وقتذاك قد تاهبوا للزحف إلى صقلية، بحملة كبيرة تولى قيادتها (مانويل) فوصلوا سنة (٣٥٣هـ / ٩٦٤م)، فى الوقت الذى كانت فيه رمطة محاصرة بقوات الحسن بن عمار، وقد استطاع البيزنطيون السيطرة على مسينا - وتبعد عن رمطة بنحو تسعة أميال - وذلك على إثر نزولهم أرض صقلية، كما استولوا على ترميني (Termini) وغيرها من المدن الصقلية وحالوا دون وصول المدد إلى الحسن بن عمار، الذى كان يحاصر رمطة.



ولا غرو فقد ركزت الحملة البيزنطية جهودها على إنقاذ هذه المدينة (رمطة) والقضاء على قوات الحسن بن عمار، الذى أدرك خطر زحف الروم على هذه المدينة، على أن الحسن بن عمار، لم يهتم بما بلغه عن كثرة قوات البيزنطيين، وعمد إلى تقسيم جيشه - الذى كان يحاصر به رمطة - إلى أربعة أقسام : فجعل قسما منها لحصار رمطة نفسها، وعمل على الخيلولة دون اتصال أهلها بالبيزنطيين، كما وضعوا قسمين آخرين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى هذه المدينة، أما القسم الرابع فاتجه به الحسن بن عمار نفسه لمقابلة

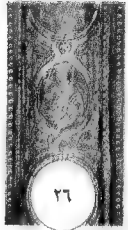
جيوش (منويل) الرئيسية الزاحفة على رمطة. واستطاعت قوات الحسن بن

عمار، التى حاصرت رمطة، أن تحول دون اتصال أهل المدينة بالبيزنطيين. وعلى الرغم من أن القوات الكلبية كانت أقل عددا وعتادا من قوات البيزنطيين، فإنه لما دار القتال بين الفريقين، أظهرت قوات المسلمين من الثبات والشجاعة والجرأة، ما أذهل أعداءهم، وكان مانويل وجنوده يعتقدون أن النصر حليفهم لا محالة. فلما تجلى ثبات المسلمين أمامهم، دب الهلع والفرع فى صفوف البيزنطيين، واستطاع الحسن بن عمار بجنده أن يعملوا سيوفهم فى رقاب أعدائهم، وانتهى الأمر بهزيمة القوات البيزنطية وقتل مانويل القائد البيزنطى.

وهكذا تمكنت القوات الفاطمية من إحرار نصر حاسم على البيزنطيين فى موقعة رمطة سنة ٣٥٣ - ٣٥٤هـ كما غنمت منها مغانم كثيرة أرسلت إلى المعز لدين الله فى إفريقية. وكان لهذه الواقعة نتائج بعيدة الأثر، إذ قررت مصير الجزيرة بأكملها؟ لأن رمطة كانت مركزا رئيسيا للمقاومة البيزنطية فى وجه الحكم الفاطمى فى جزيرة صقلية.

ولما بلغ أحمد بن الحسن بن على الكلبى - وإلى صقلية - هزيمة الروم أمام القوات الفاطمية بقيادة الحسن بن عمار فى رمطة، مضى فى عسكره إلى مسينا، ليقضى على فلول البيزنطيين، وكانوا قد رحلوا عنها ، فلحق بهم فى منطقته المجاز سنة ٣٥٤ هـ (الخليج الذى يفصل صقلية عن إيطاليا) حيث أوقع بهم الهزيمة فى موقعة المجاز. وبهذا النصر الذى أحررته القوات الفاطمية فى واقعتى رمطة والمجاز سنة ٣٥٣، ٣٥٤هـ (٩٦٤، ٩٦٥م) أصبح للأسطول الفاطمى شأن كبير فى الخوض الغربى للبحر المتوسط. فأخذت المدن الشائرة فى مدينة صقلية تستسلم الواحدة بعد الأخرى، كما دب الهلع والخوف فى قلوب أهل قلورية ؛ فعقدوا هدنة مع أحمد بن الحسن الكلبى سنة ٣٥٤هـ تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية للفاطميين.

كما أن البيزنطيين أدركوا - بعد ذلك النصر الذى أحررته القوات الفاطمية فى كل من رمطة والمجاز - أنه لا سبيل لهم إلا مهادنة الفاطميين. فأنفذ الإمبراطور البيزنطى نقفور فوكاس إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بالمغرب سفيرا عقد معه الهدنة سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م).



وبعد أن تم توقيع هذه الهدنة أرسل المعز كتابا إلى عامله على جزيرة صقلية الأمير أحمد بن الحسن الكلبي يطلب إليه الكف عن مهاجمة القوات والأمالك البيزنطية في قلورية، كما طلب منهم التحوط والحذر، واستغلال فترة الهدنة في بناء وتدعيم أسوار وحصون مدن صقلية، وأن يبنى في كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعا ومنبرا وأن يأخذ (يأذن) لأهل كل إقليم بسكنى مدينتهم ولا يتركوا متفرقين في القرى. وقد قام أحمد بن الحسن بتنفيذ ما جاء في رسالة المعز إليه فشرع في بناء سور مدينه بلرم وبعث إلى وجوه الجزيرة لياشروا العمارة في نواحيها كل في جهته.

أما عن الأحوال الداخلية في جزيرة صقلية بعد ذلك النصر الذي أحرزته القوات الفاطمية ، فإن أحمد بن الحسن الكلبي ظل واليا عليها حتى سنة ٣٥٨ هـ ثم عزله المعز لدين الله . ولا يبعد أن يكون قد لاحظ عليه ميلا إلى الاستبداد بأمور الجزيرة وولى مكانه (يعيش ) مولى الحسن الكلبي من سنة (٣٥٨ حتى ٣٥٩هـ). ومن المرجح أن الخليفة الفاطمي كان يرى إقصاء الكلبيين عن حكم صقلية حتى لا يستأثروا بالنفوذ فيها وخاصة بعد خروج جوهر الصقلي بجيوشه إلى مصر لفتحها.

وكان والى صقلية لا يعتبر ولايته ولاية شرعية إلا بعد وصول سجل التولية وخلعة التقليد من الخليفة الفاطمي بمصر. وبعضى الزمن اتخذ الأمراء الكلبيون في صقلية الألقاب مثل «ثقة الدولة» «وتاج الدولة» «وتأييد الدولة» «وصمصام الدولة».

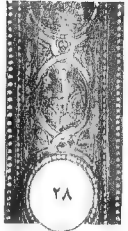
ولا شك أن الخلفاء الفاطميين كانوا يحرصون على مباشرة أمور الجزيرة الداخلية بأنفسهم إذا استدعت ظروفها ذلك. كما اهتموا بمتابعة أحوالها وأرضوا أفراد البيت الكلبي بقوة عصبيتهم بصقلية.

ولا شك أن نجاح أفراد البيت الكلبي في الاحتفاظ لأنفسهم بحكم جزيرة صقلية تحت التبعية الفاطمية كان راجعا إلى سياستهم الداخلية الإصلاحية التي انتهجوها. فقد عملوا على إرضاء الفاطميين، كما حرصوا على كسب ثقة المسلمين في صقلية بتصديدهم للغارات البيزنطية التي شنت على الجزيرة في عهدهم وفضلا على ذلك فإن الكلبيين عمدوا إلى مراعاة التوازن بين عناصر السكان بالجزيرة فلم يظاهروا أو ينصروا عنصرا على الآخر.

على أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ما لبث أن عدل عن فكرة إبعاد الكلبيين، عن حكم صقلية، بعد أن فشل في إخماد فتنة قامت بين كتامة وبعض القبائل بصقلية. فعاد وأسند إليهم







بعض المناصب الكبرى فى الدولة الفاطمية، وولى (أبا القاسم بن الحسن الكلبى) ولاية الجزيرة، وهو الذى فى عهده استقرت الأمور فى أنحاء صقلية.

ولما انتقل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ، واتخذ القاهرة مقرا لخلافته، صار يلى أمور صقلية وال مستقل عن ولاية إفريقية والمغرب.

وقد أجزى لهذا الوالى الرجوع إلى الخليفة الفاطمى مباشرة فى تصريف شئون ولايته.

وقد بدأ أبو القاسم بن الحسن الكلبى إمارته فى صقلية بتحسين حدود ولايته الشمالية، ثم خرج بعد ذلك لغزو ممتلكات الروم فى قلورية وجنوبى إيطاليا. ولم يقف الخليفة المعز لدين الله مكتوف اليدين، إزاء ما قام به (أبو القاسم الكلبى) وما أبداه من همة ونشاط هجومى واسع النطاق، على أراضى الدولة البيزنطية سنة ٣٥٩ هـ فى قلورية وجنوبى إيطاليا، بل عمل على إمداده بحاجته من المؤن والعتاد والقوات.

وقد استمر أبو القاسم بن الحسن الكلبى، واليا على صقلية، حتى توفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ - ٩٨٣م)، فى غزوته الخامسة لجنوبى إيطاليا. فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦م). وكان أهم عمل قام به هذا الوالى أيام المعز لدين الله، هو توحيد جهود القوات الفاطمية بصقلية إزاء الخطر الجرماني. يقول ابن عذارى : «وفى سنة ٣٧٢ هـ - قتل أمير صقلية، أبو القاسم على بن حسن سنة ٣٧٣ هـ، فى قتاله مع الفرنج، بعد ولاية دامت إحدى عشرة سنة - وكان «جابر بن أبى القاسم بن على بن الحسن الكلبى» مستبدا خلال ولايته الجزيرة، لذلك لم يستمر طويلا حاكما لصقلية. بل سرعان ما عُرِلَ عنها وخلفه (جعفر بن محمد بن الحسن الكلبى)، الذى ظل واليا على صقلية من قِبَلِ الفاطميين حتى سنة ٣٧٥ هـ». فى خلافة (العزيز بالله الفاطمى) شهدت الجزيرة عهدا يتسم بالأمن والاستقرار، أثناء ولاية الأمير «أبى الفتوح بن يوسف» الملقب (ثقة الدولة) (٣٧٩ - ٣٨٨ هـ)، الذى ضبط أمور الجزيرة واحسن معاملة الرعايا. وحسنت فى عهده الأحوال ، وأنسى (فاق) بهجلائه وفضائله كل من كان قبله من بنى أبى الحسين (الكلبيين). لكن أبى الفتوح يوسف اعتزل منصب الولاية لمرض أصابه. ثم خلفه ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة أبى الفتوح بن يوسف.

لكن الأمير تاج الدولة لم يكن كأيّيه، فأساء معاملة أهل الجزيرة، مما دفعهم إلى التمرد عليه وعلى عماله فخرج إليهم أبوه يوسف محمولا فى محفة لمرضه، (وشرط للناس عزله) وسكتتهم، وقدم عليهم أخاه " تأييد الدولة أحمد بن يوسف بن عبد الله بن الحسن الكلبى - وهو المعروف (بالأكلحل).



ولما ولى «أحمد الأكحل» أمور صقلية سنة ٤١٠هـ (١٠١٩ - ١٠٢٠م) أثار الانقسام بين سكانها من المسلمين، فأغرى أهل صقلية بالعمل على إخراج الإفريقيين من بلادهم، فقال له : «قد صاهرناهم (أى الإفريقيين) وصرنا شبيهاً واحداً». ثم بذل محاولته مع الأفارقة ونجح فى اجتذابهم إليه فالتفت حوله. وظل «أحمد الأكحل» يؤثرهم على أهل صقلية، فيأخذ الخراج من الصقليين ويستبد بهم، حتى ضاق الحال بأهل الجزيرة، خاصة بعد أن استخلف عليهم ابنه «على بن أحمد بن يوسف»، الذى أساء معاملتهم، فسار جماعة منهم إلى المعز بن باديس بإفريقية سنة ٤٢٧هـ، وشكوا إليه ما حل بهم.

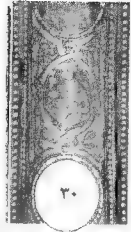
استجاب المعز بن باديس لأهل صقلية، فأرسل إليهم ابنه «عبد الله» على رأس ثلاثة آلاف فارس، حاصر بهم «الأكحل» وقتله. لكن فريقاً من الصقليين ما لبثوا أن تمردوا على «عبد الله بن المعز بن باديس»، الذى جاء لنجدتهم وإنقاذهم من عسف «أحمد الأكحل»، واستعانوا بالنورمان الذين كانوا وقتذاك فى جنوب إيطاليا. وساد الاضطراب والفوضى أنحاء الجزيرة فى عهد ولاية «الحسن بن يوسف»، الذى خلف أخاه «أحمد الأكحل»، وساعد النورمان أهل صقلية، على طرد هذا الوالى.

لقد ساد الاضطراب جزيرة صقلية، بعد أن استبد كلٌّ ثائرٍ بسجته فانفرد القائد «عبد الله بن منكوت» - أو منكود - بمجازرة (Mazara)، واستقل «عبد الله بن الحواس» بقصريانة وجرجنب وغيرهما، واستولى «محمد بن إبراهيم بن الثمنة سنة ٤٣١ هـ على سرقوسة (Syracuse) وبلرم وقطانية (Cantane). وتلقب بالقادر بالله. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل إن الفتنة امتدت إلى الثائرين أنفسهم. وانقسمت صقلية بذلك إلى عدة ولايات منفصلة، واستنجد «ابن الثمنة» بالنورمان، مما أدى إلى توجيه أنظارهم إلى صقلية، لوقوفهم على تشتت قوة المسلمين فيها.

#### ٤- سقوط صقلية فى يد النورمان وانتهاء السيادة الإسلامية عليها:

خرجت صقلية عن نطاق السيادة الإسلامية باستيلاء النورمان عليها، وساعد على هذا الاستيلاء أسباب داخلية صقلية وأخرى خارجية تخص العالمين الإسلامى والمسيحى فى القرن الخامس الهجرى. وقد سبق هذا قيام دولة للنورمان فى منطقة جنوب إيطاليا التى كانت فى بداية القرن الخامس الهجرى - قبل مجئ النورمان إليها - مقسمة بين البيزنطيين واللوباردين.

وكان النورمان قد تعلموا الملاحة فى بحر الشمال وبحر البلطيق وعرفوا بحب المغامرة. وقد بدأ ظهورهم بصورة محددة فى جنوبى إيطاليا بعودة أربعين حاجاً نورماندياً من الأراضى المقدسة



فى نهاية سنة ١٠١٥م - ٤٠٦هـ ومروهم بمونتى كركانو (MonteGargano)  
 على الساحل الشرقى من جنوبى إيطاليا. واتصل بهم ثائر من مواطنى مدينة  
 بارى يسمى ميلوس (Melus) ثار ضد  
 السلطات البيزنطية، وطلب من  
 رئيسهم التعاون معه فلاقت تلك،  
 الفكرة قبولاً منهم. وشجع  
 البابا بندكت الثامن: (

١٠١٢ - ١٠٢٤م

/ ٤٠٣ - ٤١٥هـ) واستطاع

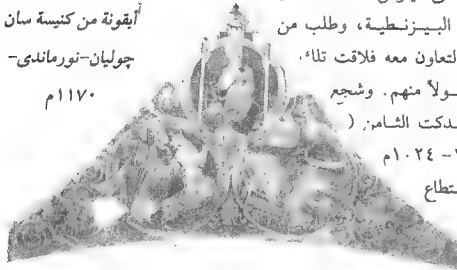
ميلوس مع حلفائه

النورماندين تحقيق النصر

فى معركة ضد البيزنطيين

سنة ١٠١٧م / ٤٠٨هـ ثم توجه هؤلاء الحجاج النورمان إلى وطنهم نورمانديا وأخذوا معهم من  
 الهدايا أقمشة ثمينة وحللا فاخرة وسروجاً ذهبية وفضية زاهية، وما لم تعرفه فرنسا فبل ذلك  
 الزمن من البرتقال الناضج. قاصدين بذلك أن يرى أبناء قومهم النورمان تلك المنتجات ليستشوقوا  
 إلى زيارة جنوب إيطاليا التى تنتج مثلها. وقد أغرى ذلك نورمان فرنسا على الهجرة لسماعهم  
 أخبار تلك الغنائم القيمة والأراضى الجيدة التى من الممكن الحصول عليها بسهولة فى أبوليا.

تلك هى أسباب إغارات النورمان الذين كان همهم منصرفاً إلى النهب أكثر مما هو متجه إلى  
 الدفاع عن دينهم. حيث تساوى البيزنطيون والإيطاليون والمسلمون فى نظرهم فصاروا يسلبون  
 هؤلاء جميعاً بحماس بالغ. والذين اعتبروا - فى مدة خمسين سنة أى حتى تمت لهم السيطرة -  
 أن كلا من إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية بلاد يمكن الإثراء فيها بسهولة. كما انتصر أيضاً ميلوس  
 والنورمان على البيزنطيين فى معركتين أخرتين. إلا أن البيزنطيين استطاعوا الانتصار على تحالف  
 ميلوس والنورمان. وانتهت بذلك الثورة وهرب ميلوس إلى البلاط الجرمانى عام ١٠٢٠م -  
 ٤١١هـ. أما حلفاؤه من النورمان فقد فروا إلى تلال إيطاليا وأوديتها يكسبون قوت يومهم  
 بسيوفهم. وانشغل أمراء كابوا capuab وبينفيتوم وساليرنو Salerno ونابلى كل بدوره فى  
 منازعاتهم الداخلية وفى سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م منح دوق نابولى المرتزقة فى جيشه من شجعان  
 النورمان مقاطعة أفيرسا (Aversa) كمكافأة لهم على خدماتهم بزعامة رايونلف (Rainiulf) وهو  
 أول زعيم للنورمان لتكون حاجزاً لنابولى ضد هجمات "كابوا" وبهذا أصبحت فيرسا أولى  
 المستوطنات النورمانية فى إيطاليا ونواة للقوة النورمانية فى جنوبى إيطاليا.



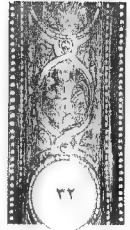


واعتبر تأسيسها (أفيسرا) حدثاً ذا أهمية كبرى، إذ يؤشر إلى تلك المرحلة التي تحول فيها النورمان من مجرد كونهم رجال سيوف يخدمون هذا أو ذاك دون هدف، بل أصبح هدفهم هو احتلال الأرض لأنفسهم، وليس لصالح بيزنطية أو ألمانيا أو اللومبارديين. وكانت ظروف إيطاليا الجنوبية مشجعة، فقد كان النزاع الداخلى بين اللومبارديين ودول المدن الإيطالية وقادة الإمبراطوريتين البيزنطية والجرمانية، والثورات المتواصلة فى أبوليا ضد البيزنطيين جعلت من المؤكد أنهم سيستغلون الفرصة السانحة. وقد جذبت أخبار نجاح النورمان أفواجاً جديدة من الحجاج والجنود النورمان كل عام. حيث دفعت الحاجة الفقراء، كما دفع الأمل الأغنياء وأصبحت أفيسرا ملجأ لكل طريد أو هارب أو راغب ثراء نورماندى.

أما عائلة تانكرد فقد سيطرت على جنوبى إيطاليا وصقلية. ويعود تاريخ هجرتها إلى إيطاليا كما ورد فى رسائل رايونلف التى أرسلها من أفيسرا إلى نورماندى يدعو فيها المغامرين للمشاركة فى مستقبل زملائهم من وطنهم فى إيطاليا المتصارعة. وكانت الأخبار التى تصل من أفيسرا مغرية للنورمان عليالهجرة ومنهم أبناء تانكرد الذى كان له اثنا عشر ولداً خمسة من زوجته الأولى وسبعة من زوجته الثانية، ومن هؤلاء الاثنى عشر بحث ثمانية منهم مستقبلهم فى إيطاليا وأثبت خمسة منهم دوراً كبيراً.

وكان أول من وصل إلى إيطاليا الجنوبية من هؤلاء الأبناء هم: وليم، ودورجو اللذان باعا سيوفهما إلى باندولف أمير كابوا وعندما جهز القائد البيزنطى مانيكاكيس حملة على صقلية العربية سنة ١٠٣٨م / ٤٣٠هـ استخدم عدداً من المحاربين النورمان كان من أبرزهم الإخوان وليم ودورجو وبلغ اسم وليم لشجاعته وقوته ثم أحرر الأخوة وليم ودورجو وهمفري شهرة واسعة كمقاتلين.

وبعد أن أوجدوا جيشاً فرنسياً تحت قيادتهم رأوا أنه من الأصلىح لهم القتال من أجل صالحهم وليس من أجل صالح الآخرين. وطوروا أعمالهم غير المنظمة إلى غزو منظم. وأصبح وليم أميراً على أبوليا سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م التى تكونت من اثنتى عشر دوقية نورمانية. واتخذت أمالفي Amalphi عاصمة لها، وذلك بعد الانتصار على البيزنطيين ومنذ ذلك الوقت أصبح بالإمكان تأريخ استقرار سلطان النورمان فى إيطاليا الجنوبية. وعندما توفى وليم سنة ١٠٤٥م / ٤٣٧هـ تولى لإمارة أبوليا مكانه، وبعد مقتل دروجو سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م تولى الإمارة المذكورة الأخ الثالث همفري. ولم يبد القادمون الجدد من النورمان أى احترام أو عطف على رجال الكنيسة أو المواطنين العاديين، بل دمروا الكنائس وقتلوا المسيحيين.

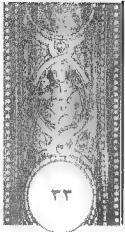


وبعد فترة من الزمن ظهرت مشاعر الكراهية للنورمان ممزوجة بالخوف والحق في كل إيطاليا الجنوبية. لدرجة أن رئيس دير للرهبان كتب خطاباً إلى البابا ليو التاسع (١٠٤٨ / ١٠٥٤ م) يشكو فيه من تعرضه لهجوم من قبل النورمان وهو في طريق عودته من الحج إلى روما وعندما لم يجد إنذار البابا للنورمان نفعاً، أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي كتاباً يدلل فيه على سوء معاملة جيش النورمان المسيحي للبلاد التي استولى عليها في جنوبي إيطاليا.

ونتيجة لما سبق فقد بدأ الصراع بين البابوية والنورمان في جنوبي إيطاليا. فدخلت البابوية والدوقيات اللومباردية القديمة والبيزنطيون في اتحاد ضد النورمان وأعد البابا ليو التاسع في سنة (١٠٥٣ / ٤٤٥ هـ) جيشاً لطرد النورمان إلا أن النورمان بقيادة ثلاثة منهم وهم : الأخوان هسفرى، وروبرت جسكار ، ونورمانى آخر اسمه ريتشارد استطاعت الانتصار على البابا في معركة كيفيتاي (Civitae). ووقع البابا نفسه أسيراً في أيديهم ثم أطلقه همفرى النورمانى في مارس ١٠٥٤ م - ذى الحجة ٤٤٥ هـ ، فهجر البابا حلفاً قد دعا إليه. وكان روبرت جسكار قد وصل جنوبي إيطاليا في نهاية عام ١٠٤٥ م / ٤٣٧ هـ أو في بداية ١٠٤٦ م / ٤٣٨ هـ .

لذلك كله عقد البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩-١٠٦٦ م / ٤٥١-٤٥٣ هـ) معاهدة مع النورمان سنة (١٠٥٩ م / ٤٥١ هـ) وأقطعت البابوية دوقية أبوليا وكلايريا إلى روبرت جسكار بن تانكرد النورماندى. وقسم روبرت : بعظمه الله والقديس بطرس دوقاً على أبوليا وكلايريا ودوق المستقبل لصقلية إذا ما سنحت له الفرصة بذلك. وعهدت إلى أخيه روجر (روجر) مهمة الاستيلاء على جزيرة صقلية. مكافأة له ولأعقابيه من بعده - على طرد المسلمين من الجزيرة. والتي بورت كحرب مقدسة، فحصل النورمان بهذا على غطاء شرعى لاحتلالهم صقلية. وكان روجر تابعاً لأخيه روبرت. إذ سبق أن أرسله أخوه روبرت على رأس قوات إلى كلايريا، ونصب نفسه هناك سيداً لنصف المقاطعة بالرغم من تبعيته لسلطان أخيه ، ثم تم للأخوين روبرت وأخيه احتلال كلايريا احتلالاً كاملاً وأخذها من البيزنطيين سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٠ م.

أما روجر- وهو الابن الأصغر (الثاني عشر) لتانكرد فقد بقى مدة طويلة في نورمانديا قبل مجيئه إلى أبوليا في إيطاليا الجنوبية. سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م. وبعد مجيئه قام بعمليات سلب وسرقة الدور والخيول من اصطبلات أمالفي، وكان تطلع روبرت وروجر للاستيلاء على صقلية وأخذها من المسلمين هو هدفهما منذ وصولهما إلى ريو Regio وقد أثارت خيراتها بخصوصيتها شغفهما بالجزيرة، كما كان قرب المسلمين يشكل خطراً دائماً لمملكتهما. غير أن روبرت جسكار على أية حال قد أعاقته خلال السنوات الأولى من الاستيلاء ما وقع من الأحداث في إيطاليا



ولعب دورا ثانيا في الاستيلاء على صقلية وكان روجر طموحا فوجد في احتلال صقلية ما يحقق له شهرته، فقد كان روبرت جسكاردي يحكم الأرض في إيطاليا الجنوبية. بينما وجد روجر أن أخاه بطيء في مكافأته بالأراضي والإقطاعات في جزيرة صقلية، فهي أغنى من إيطاليا الجنوبية نفسها وهي تحت سيادة المسلمين. فإذا ما شن عليها حرباً فإنه لا يحتاج إلى عذر أو سبب.

وقد ربط بعض المؤرخين بين فقدان جزيرة صقلية وبين ضعف العالم الإسلامي. ومنهم ابن خلدون الذي أرجع ذلك إلى تدهور قوة كل من الدولة الفاطمية والأموية في الأندلس، إذ قال: «حتى إذا أدرك الدولة العبيدية

والأموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها». وقال ابن الخطيب «ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت (الكلبي)، إلى أن انقطع عنهم إمداد المسلمين. لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمائة». وقد حدثت غارات العرب الهلالية من المساعدات المبذولة من جانب شمال إفريقية إلى صقلية. فكان الزيريين أحوج ما يكونون لجميع مواردهم. وتركت صقلية تدبير أمور دفاعها بما لديها من وسائل. إلا أن هذا لا يعنى أن الزيريين لم يدافعوا عن صقلية ضد النورمان عندما تهيأت لهم الفرصة. كما أن الانقسامات في العالم الإسلامي التي عزلت الجزيرة عن مركز الخلافة الفاطمية دفعت البابا نيقولا الثاني إلى مد مظلة الحكم النورماندي من إيطاليا إلى صقلية.

**أما العوامل الخارجية** الخاصة بالعالم المسيحي والتي كان لها أثرها في روال الوجود الإسلامي من صقلية، فترجع جذورها إلى وقوف البابا وجنوده ضد مجاهد العامرى في إيطاليا وسردانية. وكذلك في الدور الذي لعبته كل من بيزا وجنوة على كل من صقلية وإفريقية.

فالأندلس كان فيها ثلاثة متنافسين يدعون الخلافة الأموية، استقل أمراء الأطراف وأصبحوا يدعون بملوك الطوائف. وكان نصيب «مجاهد العامرى» دانية. الذي تقلد ولايتها منذ سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م. ثم استطاع أن يفتح جزر البليار (ميورقة، منورقة، يابسة) سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٥ م وسرانية ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م. وقام من سرانية في السنة نفسها بمهاجمة مدينة لوني (Luni) الإيطالية على البحر التيراني. واتخذها مركزا للهجوم على المدن الإيطالية وخاصة بيزا. فأقرعت هذه الأعمال البابا بندكت الثامن فدفع كلا من بيزا وجنوة إلى طرد مجاهد العامرى.

ولا شك أن كلا من بيزا وجنوة وجدتا نفسيهما مضطرتين إلى التعاون وإيقاف العداوة بينهما لمقاومة مجاهد العامرى بإيطاليا، وكان السبب الحقيقي في إطاعتها وأوامر البابا هو الحرص على مصالحهما التجارية والبحرية. وأن الخلاف الدينى بين الطرفين المتنازعين هو الذى جعل من

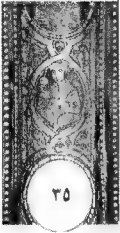


آثار حمام عرب بلل جزيرة مايورقة

كنيسة مدينة بيزا الإيطالية وبجوارها برج بيزا المائل الشهير







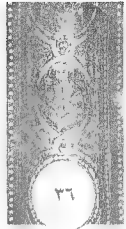
الحرب السياسية الدوافع حرباً مقدسة. وإن المعركة بين بيزا وجنوة من جهة ومجاهد العامرى من جهة أخرى تدل فيما تدل على ابتداء الاتجاه الجديد وعلى تغير ميزان القوى البحرى بين القوتين المتصارعتين على سيادة البحر المتوسط. وأنها كانت تهدف إلى وضع خاتمة للانتشار الإسلامى فى الغرب.

وفعلًا استطاعت كل من بيزا وجنوة معا ، استعادة مدينة : «لبنى» من مجاهد العامرى سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م الذى عاد إلى سردانية. ثم استطاع أسطول بيزا وجنوة انتزاع سردانية من مجاهد سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م. وهكذا كان لعمل كل من بيزا وجنوة أثر فى تأمين جهة الأندلس من أى احتمال لمساعدة أندلسية لصقلية العربية. ولم يقتصر دور بيزا وجنوة على الجبهة الأندلسية.

ف عندما بدأ روجر النورماندى بهجومه على صقلية كانت تحركاته فى نظر البيزنين بطيئة. وطلبوا منه أن يوجه جهوده نحو بالرمو عاصمة صقلية ومركز الحياة التجارية فيها. لكن روجر كان متردداً فى مهاجمتها لأن جيشه كان قليل العدد، كما أن جزءاً من قوته مشغول فى جهات أخرى. وتوسل إليه البيزيون دون جدوى - أن ينضم إليهم لحصار المدينة (بلرم) - لذلك قرروا سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م أن يجارفوا بالغاغرة وحدهم. وهاجم أسطولهم ميناء المدينة ونفذ إلى مدخلها واستولى على بعض السفن العربية المحملة ببضائع ثمينة، وقامت جنود الأسطول بمعارك تحت أسوار المدينة، ولكنهم توقفوا ولم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة. إضافة إلى الهجوم الذى قام به البيزيون والجنويون مؤخراً فى سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م على إفريقية أيام تميم بن المعز بن باديس (الصنهاجى).

وهكذا باتت الظروف مواتية للنورمان لاحتلال الجزيرة بسبب تفتت القوى الإسلامية فى صقلية، والصراع والتنافس والانقسام الذى كان بين أمراء الجزيرة، وأخذت صقلية تفقد قوتها وأهميتها الدفاعية بعدما ظلت لمدة طويلة حصن الإسلام المتين فى البحر المتوسط. وتعود جذور هذا الضعف إلى استمرار الخلافات والمنازعات الداخلية بين مسلميها من العرب والبربر. ففى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م ثار على بن ثقة الدولة على أخيه جعفر تاج الدولة مستعينا بالبربر والعبيد. لكن تاج الدولة تمكن من قمع ثورة أخيه وقلته، ونفى جميع البربر مع عوائلهم من الجزيرة إلى إفريقية، وأمر بقتل العبيد عن آخرهم، وجعل جيشه من الصقليين فقط. مما كان سبباً فى ضعف الجيش الصقلّى. ثم قامت ضده ثورة شعبية اشترك فيها أهل البلد جميعاً، كبارهم وصغارهم، وحاصروه فى قصره فى محرم سنة ٤١٠هـ مايو ١٠١٩ - بسبب سوء معاملة كاتبه لأهلها وفرضه ضرائب باهظة عليهم - ولم ينتج منهم إلا خروج والد ثقة الدولة المصاب بالشلل فى محفة، والذى كانت له منزلة كبيرة عندهم، فهذا من هياجهم، وطلبوا منه عزل تاج الدولة عن الإمارة وتعيين أخيه أحمد الأكلحل، فتم لهم ما أرادوا.

وقد اتبع الأمير أحمد الأكحل سياسة التفرقة بين الصقليين والإفريقيين مما أدى إلى مقتله سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٩م. ثم تولى أخو الأكحل - وهو الصمصام حسن بن ثقة الدولة - الإمارة ثم عُزل عنها، ونجّزأت الجزيرة إلى ولايات يحكم كلأ منها قائد مستقل. فالعاصمة بلرم (أو بالرمو) أصبحت يحكمها مشايخها. بينما استقل عبد الله بن منكوت بمدن مازرة وطرابلس والشاقة ومرسى علي وما حولها، وسيطر على بن نعمة المعروف بابن الحواس على مدن قصريانة وجرجنت وغيرهما، والمكلاّتي بمدينة قطنانية، وانفرد محمد بن إبراهيم المعروف «بابن الثمنة» بسرْقوسة وهو الذى استطاع قتل المكلاّتي



واستولى على قطنانية.

وهنا يبدأ الدور الخياني الذى لعبه ابن الثمنة فى استدعاء روجر لاحتلال صقلية، وتذكر لنا المصادر قصة ابن الثمنة وكيف تم، ذلك إذ إنه بعد أن قتل المكلاّتي - الذى كان زوجاً لأخت القائد ابن الحواس - طلب من ابن الحواس أن يزوجه من ميمونة زوجة القتيل. فكان له ذلك، إلا أن ابن الثمنة - وهو سكران - تخاصم مع زوجته وفصد ذراعها، واعتذر لها بالسكر صباحاً، فظاهرت بقبول الاعتذار، لكنها شكت إلى أخيها ابن الحواس ذلك، فحلف أنه لا يعيدها إلى زوجها، فجهز ابن الثمنة جيشاً إلى قصريانة وجرجنت لانتزاعها من ابن الحواس، إلا أن ابن الثمنة حلت به هزيمة منكرة، فاستنجد بروجر النورماندى الذى كان فى مدينة ملطية قلورية فى جنوب إيطاليا، ويقول فى ذلك الانتصار بالكفار لما يريده الله تعالى فسار إلى مدينة مليطو. وكان ملكها حينئذ وجار الفرنجى فى جمع من الفرنج، فوصل إليهم ابن الثمنة وقال : أنا أملككم الجزيرة ! فقالوا : إن فيها جنداً كثيرة، ولا طاقة لنا بهم، فقال : إنهم مختلفون، وأكثرهم يسمع قولى، ولا يخالفون أمرى. فساروا معه فى رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، واختلفت المصادر فى تاريخ بدء الغزو النورماندى، فابن الأثير وأبو الفداء والنويرى ذكروا أن أول هجوم لروجر النورماندى على صقلية كان سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م. بينما غيرهم يقول إن أول هجوم ناجح للنورمان على صقلية كان سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م. ويؤيد التاريخ الأخير مصادر عربية عدة، بينما تذكر مصادر عربية أخرى أن بداية ذلك الهجوم كانت سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م.

وبما أن المصادر الأوربية تذكر أن روجر جاء من نورمانديا بفرنسا إلى إيطاليا سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م. أى أنه فى سنة ٤٤٩م كان لا يزال فى نورمانديا، مما يؤدى إلى ترك ما قاله كل من ابن الأثير وأبو الفداء والنويرى عن بداية الغزو النورماندى. وتذكر المصادر الأوربية مؤامرة سرية قام بها نصارى مدينة مسينا باستنجاههم بالنورمان قبل استدعائهم من قبل ابن الثمنة، وذلك أن ثلاثة نبلاء من نصارى مسينا اجتمعوا فى ٦ رجب سنة ٤٥٢هـ / ٦ أغسطس ١٠٦٠م بجزيرة سان جاسينتو



وقرروا أن تقدم صقلية للكونت روجر والدوق روبرت اللذين كانا مع البابا في مدينة مليطو Mileto في كلابريا بجنوب إيطاليا، وأبحر النبلاء الثلاثة المتآمرون إلى مليطو متكرين ومتظاهرين بأنهم متوجهون إلى مدينة طرابنشي Trapani بصقلية. وتقابلوا مع البابا وفاتحوه بقدم روجر إلى صقلية فوافق على ذلك، وعندئذ حلف روجر اليمين وقال أنه سيكون في مسيني بعد أسبوع، وفعلاً بدأ هجومه في سبتمبر ١٠٦٠م شعبان سنة ٤٥٢هـ. بعد مدة قصيرة من احتلال ريو (Riggio) بإيطالية. وقدم له المسيحيون المساعدة من داخل المدينة فقدموا السلاح وفتحوا أبواب المدينة، إلا أن روجر لم يستطع السيطرة عليها بسبب المقاومة الإسلامية التي واجهها، فاضطر إلى الرجوع إلى ريو، ثم انضم إلى أخيه روبرت لمواجهة النورمان المغتصبين في إبوليا والمدن التي لم تخضع لهم. بينما كان الأخوان يفكران في مواصلة الحرب في جزيرة صقلية، جاء ابن الثمنة يستحثهم على هذا العمل.

ولم تذكر المصادر العربية مزيداً عن تفاصيل المقابلة التاريخية الحثيائية التي تمت بين ابن الثمنة وروجر النورماندي في مليطو (Mileto) وبعدها في ريو (Reggio) ومعهما روبرت. بينما ذكرت المصادر الأوربية ذلك، وقالت أن النورمان عندما وافقوا، قدم ابن الثمنة ابناً صغيراً له رهينة إلى روبرت، ليطمئنه ويشجعه على الاستمرار في ذلك العمل.

واستعد روجر للهجوم بنفسه مع جنده وأمه أخوه روبرت بالفرسان والبحارة الذين كانوا عنده في ريو وسار روجر بصحبة ابن الثمنة الذي كان يعرف الأماكن الصقلية، مع الادعاء بأنه يتباهى بأكثر ما يعرف.

وفي أوائل محرم سنة ٤٥٣هـ / أواخر فبراير سنة ١٠٦٠م بعد الظهر نزل النورمانديون على لسان أرض بالقرب من البحيرات وأخذوا مدينة رمطة (Rametta)، ثم توجه روجر إلى مسيني، لكنه لقي مقاومة إسلامية قوية، دافع عن سور المدينة الرجال والنساء، وساءت أحوال الغزاة النورمان، ولجأ ابن الثمنة إلى قطانية (Catania) وفشل الغزاة في هجومهم هذا، وأيقن النورمان أنه ليس كافياً أن يعتمدوا على عملائهم، أو على من معهم من المسلمين والمسيحيين لتحقيق هدفهم إلا إذا كانت لديهم قوة أكبر وخصوصاً قوة بحرية.

وقام الأخوان روبرت وروجر في صيف ١٠٦١م - ٤٥٣هـ بهجوم ثالث على جزيرة صقلية تمكنوا به من احتلال مدينة مسيني، وجعلها قاعدة لعملياتهم. ونقطة بداية الحملات القادمة.

هنا قام ابن الثمنة بدور الدليل للحملة النورمانية إلى داخل صقلية، فسيطروا على رمطة (Rametta)، واتجهوا نحو الداخل حتى وصلوا إلى قصريرانة (Castrogiovanni)، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء عليها مع أنهم رسخوا أقدامهم في قلعتي تروينا (Troina) وشتن ماركو



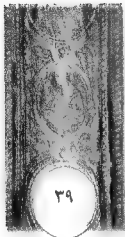
(San-Marco). كما أخفقوا كذلك فى الاستيلاء على جرجنت (Gergent)، وحدثت بعض التطورات التى أدت إلى عجز النورمان عن متابعة رحفهم فى صقلية، فقد حرم مقتل ابن الثمنة فى سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م - بواسطة كمين وُضِعَ - له النورمان من حليف مفيد. ثم وقع نزاع بين الأخوين روجر وروبرت حول اقتسام الأراضى المحتلة أدى إلى الحرب بينهما عند عودتهما إلى إيطاليا. وكان الخوف من اندلاع ثورة فى كلابريا هو الذى جعل روبرت يوافق على تقسيم كلابريا مع روجر وعقد معاهدة بينهم.

وهكذا استؤنف القتال مع مسلمى صقلية فى نهاية سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م، واستمر خلال السنة التى تلتها (٤٥٥هـ). ونجح النورمان فى تثبيت نفوذهم فى مسيني وتروينا، أما بقية الجزيرة فقد ظلت بأيدي المسلمين.

وفى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م هاجم المسلمون تروينا، غير أنهم هزموا بالقرب من سيرامى. وحاول كل من روبرت وروجر سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م - عبثاً - السيطرة على بلرم، حتى أرغما على رفع الحصار عنها بسبب المقاومة التى أظهرها المسلمون فى غرب صقلية ضد الغزو.

وخلال السنوات التى تلت كان للتقدم بطيئاً باتجاه العاصمة بلرم بسبب، وجود الزيريين متمشلاً فى أيوب وعلى ابنى تميم بن المعز بن باديس. إلا أن روجر استطاع أن يهزم أيوب بن تميم فى معركة قرب بلزم سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٨م، مما حملة على العودة إلى إفريقية وبذلك خلا الجو من وجود شخص يوحد المسلمين فى جبهة واحدة ضد الغزاة وتبعثرت جهود المسلمين فى الجزيرة. وكان حصار روبرت لمدينة بارى البيزنطية فى إيطاليا قد جمد المعارك فى صقلية. لكن استيلاء عليها سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م وفر له الأسطول اللارم لمعاودة الهجوم على جزيرة صقلية. فتمكن النورمانديون أولاً من الاستيلاء على قطانية Catane، ثم تقدموا لحصار بلرم فى آخر ربيع الثانى وبداية جمادى الأولى سنة ٤٦٤هـ / يناير ١٠٧١م، واشترك فى حصارها كل من روبرت وروجر، فقاومت المدينة، ولكنها اضطرت بعدها إلى الاستسلام، وتحولت إلى قاعدة حربية للنورمان.

وكان لامتناع المساعدات من شمال إفريقية أثر فى سقوط بلرم، التى بالسيطرة عليها انتهت المرحلة الأولى فى الاستيلاء على جزيرة صقلية. وقد حصل روبرت على حصنة الأسد من الغنائم، وأرغم روجر على تسليمه الجزيرة بكاملها، كما وضع قسماً منها تحت سلطته المباشرة بضمها بلرم ونصف مسينى. بينما خصص القسم الباقي لروجر. وقد أدى سقوط بلرم إلى استسلام مدينة مازارا (Mazara). لكن خلال الاثنتا عشرة سنة التالية كان النورمان لا يملكون إلا قوة ضعيفة تحت إمرتهم، لذا كان تقدمهم بطيئاً فى الجزيرة.



فبالرغم من أن النورمان احتلوا كلاً من مسيني وقطانية وبلرم ومازرا، فإنه لا زالت هناك عشرون سنة من الغزو أمام روجر. فالمسلمون لا يزالون في المنطقة الجبلية بين مسيني وطبرمين. وأمراء وطنيون آخرون في كل من سرقوسة وطرابنش وقصريانة، نجحوا في استمرار القتال لفترة طويلة. وفي هذه اللحظة بدأت حرب العصابات بين جنود روجر والمسلمين، واستطاع المسلمون قتل أحد قواد روجر المسمى سيرلو (Serlo)، وهو ابن أخيه وشريكه في الغزو.

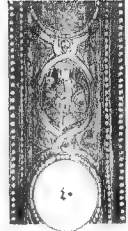
وقد اتخذت الحرب في سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م طابع الشمول والقوة

التي كان ينقصها في البداية. إذ إن مسلمي سرقوسة وجدوا جندياً شجاعاً في شخص أميرهم بينفاريث (Benevart) الذي استطاع أن يهزم جوردن (Jordan) الابن غير الشرعي لروجر، وأدى هذا إلى استدعاء الكونت روجر نفسه، وفي هذه المرحلة أصبحت الحرب حرباً صليبية حقاً، واستطاع روجر احتلال مدينة طرابنش سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، ثم طبرمين (Taormina) سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م، ولم يبق بيد المسلمين إلا جرجنت وسرقوسة وقصريانة ولوطس وبثيرة، ثم توقفت أعمال الغزو النورماندي سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م، عندما رأى روجر أنه من الضروري أن يحل قواته محل قوات أخيه روبرت التي تحتل مسيني، وقد يرجع ذلك إلى حاجة روبرت إلى قواته لتنفيذ مشروعاته في الأديراتي.

وكان بينفاريث أمير سرقوسة لا يزال قادراً على أداء مقاومة باسلة. بل وأكثر من ذلك، ففي عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م تمكنت سفنه من الهجوم على ريو (Riggio) ونقطره (Nicotera) على الساحل القلوري بإيطاليا، ولكنه هُزم أخيراً بواسطة الجيوش التي جمعها الكونت روجر أخيراً في سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ثم أبحر روجر في نهاية مايو ١٠٨٦م / صفر ٤٧٩هـ على رأس أسطوله ونزل ميناء سرقوسة. وعندما التقى معه في معركة بحرية، انتصر فيها روجر وغرق بينفاريث نفسه خلالها، فاستسلمت المدينة في جمادى الآخرة سنة ٤٧٩هـ أكتوبر من السنة نفسها. ثم فرض روجر حصاراً صارماً على كل من جرجنت وقصريانة حتى اضطر أهلها من المسلمين إلى أكل الميتة، فاستسلمت جرجنت سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م. بينما صمدت قصريانة بعدها ثلاث سنين، ثم اضطرت إلى التسليم بعد أن اشتد عليها الحصار سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، ثم سقطت بثيرة (Butera) ونوطس (Noto) في السنة نفسها، واعتبرت هذه السنة (٤٨٤هـ) نهاية لعمليات ستيلاء النورمانيين على جميع جزيرة صقلية بكاملها.

وبناء على ما تقدم يكون النورمان قد استغرقوا في غزوهم التدريجي لصقلية حوالي ٣١ سنة (٤٥٣-٤٨٤هـ / ١٠٦١-١٠٩١م) منذ بداية هجومهم لأول حتى تمكنوا من السيطرة النهائية على

الجزيرة. وكانت المقاومة التي لقيها النورمان و قلة عساكرهم وضعف أسطولهم، من أهم العوامل التي أطالت فترة الغزو.



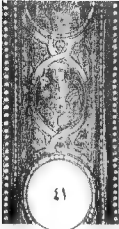
وبالرغم من أن مساعدة روبرت كانت مهمة في بداية الغزو، إلا أن روجر أخذ دور القيادة، بينما احتفظ روبرت بعد احتلال باليرمو (Palermo) فقط وأبقاها تحت سلطته، بعيداً عن السيطرة الكاملة على الجزيرة والتي أصبحت خاضعة لسلطة روجر بورسا خليفة روبرت الضعيف، وهو دوق أبوليا (٤٧٨هـ - ٥٠٥هـ / ١٠٨٥ - ١١١١م) الذي سلم نصف بلرم إلى عمه روجر. وإذا كان روجر هو المسيطر الحقيقي على صقلية، فإنه في ذات الوقت المؤسس للدولة النورمانية في صقلية.

ونجد الإشارة إلى ما قاله أحد الباحثين عن مسئولية سقوط صقلية في يد النورمان، إذ تساءل قائلًا: على من تقع تلك المسئولية؟ أعلى الفاطميين أصحاب السيادة الاسمية الشرعية عليها؟، أم على حكام جزيرة صقلية أنفسهم؟، أم على بنى زيرى أصحاب إفريقية الذين استنجد بهم أهل صقلية؟ ثم قال : وفي الواقع أننا لم نصادف أدنى إشارة إلى أن الفاطميين حاولوا لمجدة صقلية أثناء تعرضها للغزو النورماندى الذى استمر أكثر من ثلاثين سنة، وإذا كانت صقلية «ملكاً

لسلطان مصر تغادرها كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصر» على قول الرحالة المعاصر ناصر خسرو، فلماذا تقاعس هذا السلطان عن الدفاع عنها، وعلى هذا فالفاطميون مسئولون مسئولية كبيرة عن سقوطها، ومن ناحية أخرى فإن حكام صقلية، وهم الذين مزقهم الحقد والتنافس كانوا سبب استشارة طمع النورمان فى جزيرتهم، ألم يكن ابن الثمنة هو الذى استدعى النورمان لامتلاك صقلية ؟ بالإضافة إلى عدم الوفاق بين العرب والبربر الذى أدى إلى رفض حكام صقلية لمساعدات تميم بن المعز بن باديس. ولذلك يتحمل حكام صقلية جانباً كبيراً من مسئولية ضياع الجزيرة. أما من ناحية بنى زيرى، فالتاريخ يشهد بأنهم لم يتقاعسوا عن مد يد



تصوير جدارى بأسلوب فاطمى- كنيسة  
بلاطينا في باليرمو- صقلية



المساعدة لصقلية أثناء الغزو النورمانى، لولا أن أهل صقلية أنفسهم أساءوا معاملتهم مما دفع الأسطول الزيرى إلى أن يعود أدراجه إلى مدينة وميناء المهديّة.

على أن أهم النتائج التى تمخضت عن سقوط صقلية فى أيدي النورمان كانت هى : خروجها من نطاق السيادة العربية لتصبح فى قبضة العناصر اللاتينية والكاثوليكية، كما أن العرب ظلوا لمدة ما يقارب القرون الثلاثة من حكمهم لها لا يسيطرون على الجزيرة فقط، بل كانوا يحاربون منها جنوب إيطاليا والبيزنطيين والألمان واللمباردين، لكن سقوط صقلية أنهى هذا الدور.

وباستيلاء النورمان على صقلية عادت إليهم السيطرة على أجواء البحر المتوسط. بحيث لم نعد نرى الوقت الذى وصف ابن خلدون فيه النصارى أنهم لا يستطيعون أن يطفوا لوحاً من الخشب فى هذا البحر، بل أصبحت السيطرة فيه لهم، كما ذكر الشاعر الصقلى أبو العرب عندما استدعاه المعتمد ابن عباد إلى الأندلس. واعتبر ذلك الاحتلال النورماندى ضربة قاضية لنفوذ المسلمين، وفى ذلك يقول أحد الباحثين : «وما زالت قوة الإسلام فى البحر غالبية وكلمته هى العليا حتى خرجت صقلية من يدى الإسلام»، وأن تكوين دولة نورماندية فى إيطاليا ثم صقلية مكن النورمان من السيطرة على مالطة، فكسب غرب أوروبا السيطرة على المضائق الحيوية بين إفريقيا وصقلية. وبانتهاء عمليات سقوط صقلية وزوال السيادة السياسية للمسلمين عنها، فقد «الرباط الكبير» الذى كان محرساً يحمى الشواطئ الإفريقية من غزو الشماليين، وتضعفت أحوال دولة بنى زيرى لانقسام جهودها بين الإعداد البحرى لمواجهة الأساطيل النورمانية والإعداد البرى للقضاء على الفتن التى يستغلها الطامعون والمغامرون بمعاونة القبائل العربية فى مناطق مختلفة من إفريقيا. وتمكن النورمان فى صقلية مرتين من تهديد إفريقيا العربية.

وقد اعتبر كل من ابن الأثير وابن العبرى سيطرة النورمان على صقلية سبباً فى سقوط الأندلس. فكان غزو جزيرة صقلية بداية للحروب الصليبية، وفى ذلك يقول كورتس : إن احتلال النورمان لصقلية قد وضع إسفينا جمهرة للدول الإسلامية التى تمتد من دجلة إلى أبرو، وبهذا أصبحوا المنفذين الحقيقيين للحروب الصليبية، والمعروف أن هناك عوامل مجتمعة أدت إلى الحروب الصليبية كان أبرزها هو الاحتلال النورماندى لإيطاليا وصقلية. فمن أهم الأحداث التى جعلت الحروب الصليبية ممكنة هو تحطيم القوة البحرية الإسلامية فى وسط البحر المتوسط، وباستيلاء النورمان على صقلية صارت الرحلة من مرسيلية وجنوة إلى الشرق آمنة مؤكدة، وأن

التوصل إلى الدخول إلى الشرق براً وبحراً بشكل  
لم يحدث من قبل أبداً هو الذى أوجد الحروب  
الصليبية.

أما عن النتائج الاقتصادية يقول هيد Heyd:  
إن الغزو النورمانى لصقلية ترتبت عليه نتائج كبيرة  
لدول أوروبا البحرية، فعوضاً عن أنه فتح لهم طريق  
دخول البلد الشهير بخصوبة أرضه منذ زمن بعيد  
(يقصد صقلية)، فإنه وضع فى متناول تلك الدول  
عديداً من المنتجات الطبيعية والمصنعة التى تمكن  
المسلمون من إقامتها مدة حكمهم الطويل كالسكر  
والبلح والقطن والخير.

### أحوال المسلمين فى صقلية النورمانية:

حكم النورمان صقلية قرناً من الزمن (١٠٩١ -  
١١٩٤م)، ونظراً لقلّة أعدادهم وكثرة الأعداء من  
حولهم، وبخاصة فى جنوب إيطاليا، فإن بعض  
ملوك النورمان أحسنوا معاملة المسلمين فى الجزيرة  
لاستمالتهم إليهم، كما اعتمدوا عليهم فى  
جيوشهم، وأفادوا من مهارة المسلمين فى الجزيرة  
فى فنون الحرب كبناء المجانيق وأبراج الحصار  
المتحركة، فى حروبهم المستمرة فى جنوب إيطاليا  
ضد البيزنطيين تارةً، وضد الإمبراطورية الرومانية  
المقدسة تارةً، وضد قوات الباباوات وحلفائهم تارةً  
أخرى، لذلك فإن ملوك النورمان- فى بادئ الأمر  
على الأقل- قاموا بمحاولات بدائها الكنيسة لتنصير  
المسلمين وحموهم ما استطاعوا من اضطهاد  
الإقطاعيين من الفرسان والمستوطنين الجدد من  
اللمبارد.



قصر ابن عباد بأبصيلية- الأندلس- عصر  
الطوائف

### فسيفساء الملك نورماندى وجندى- صقلية





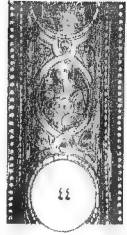


ولما كان النورمان حديثي عهد بالحضارة، فإنهم اعتمدوا على المسلمين في الإدارة وفي الدواوين والبلاط الملكي، وفي أعمال البناء والتشييد، والزائر لصقلية اليوم يلاحظ أن الكاتدرائيات والقصور من عهد النورمان في الجزيرة ذات طابع معماري وزخرفي إسلامي، تماماً كما هو الحال في إسبانيا النصرانية التي اعتمدت على مهرة الصانع من المسلمين في كثير من أعمال بناء الكنائس والقصور. وكان لروجر الثاني عباءة ملكية صُنعت سنة ٥٢٨هـ بدار الطراز على حاشيتها كتابة عربية بالخط الكوفي. كما أحاط روجار هذا نفسه، على غرار ما درج عليه ملوك المسلمين، بالمداخ من الشعراء، وتحت رعايته صنف الشريف الإدريسي كتاب (نزهة المشتاق) المعروف بكتاب رجار في الجغرافيا، وظلت العملة العربية هي العملة المتداولة في صقلية وجنوب إيطاليا، تماماً كما كانت الدينار / المائيل المرابطية والموحدية هي المتداولة في ممالك إسبانيا المسيحية حتى بعد تقلص نفوذ المسلمين وسيادتهم في الأندلس وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية ظلت عملاتهم تُضرب عليها كتابة عربية بالخط الكوفي، وبعضها كان يحمل التاريخ الهجري وعبرة (محمد رسول الله).

كنيسة سان جيوفاني ذات الأسلوب المعماري العربي - (ربما كانت مسجداً وتحولت بعد زوال حكم المسلمين)



## روجر الأول (١٠٩١ - ١١٠١ م) :

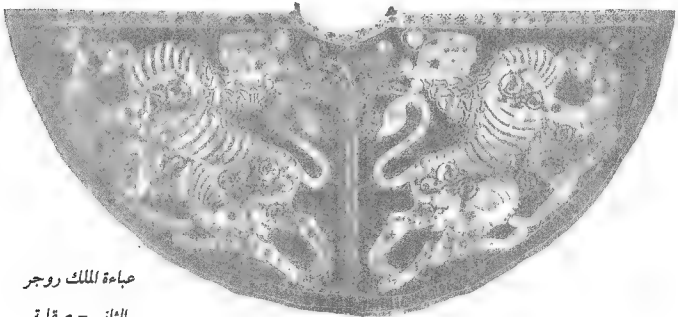


٤٤

اقتسم الأخوان روبرت جيسكارد روجر صقلية بينهما، وسمى روبرت أخاه روجار كونت (قومس) صقلية، ثم لم يلبث أن تعزز مركز روجر في الجزيرة بعد وفاة أخيه (١٠٨٥م)، وكون جيشاً جله من المسلمين أعانه على توطيد الأمن والاستقرار في الجزيرة، ويقول الإدريسي عن الكونت روجر : «ولما صار أمرها إليه» . . نشر سيرة العدل في أهلها ، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم، وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهلهم وذرائعهم، ثم أقام على ذلك مدة حياته . . . » .

ويؤيد ذلك من الجانب المسيحي ما ذكره وليام غليام الأبولي ومالاترا (Malaterra) من أن روجر لما فتح بلرم (يناير ١٠٧٢م) وعد المسلمين بأن لا يؤذيهم بشيء، وان لا يكره أحداً على تبديل دينه . وكان من مصلحة روجر أن يستميل المسلمين ليساندوه ضد الخروج على طاعته، كما كان يحدث كثيراً للملوك في بعض ممالك أوروبا التي تفشى فيها نظام الإقطاع آنذاك . وكان أفراد البيت النورمانى الحاكم انتهازيون إلى أبعد حد، فقد أحسنوا معاملة المسلمين طالما كان ذلك في مصلحتهم الشخصية .

والحق لقد تميزت سنوات حكم الكونت روجر الأول بالتسامح الدينى، ولم تحدث ثورات داخلية ضده، وقد رفض ضغوط الكنيسة الكاثوليكية عليه لتنصير المسلمين لأسباب تتعلق بكيان



عباءة الملك روجر

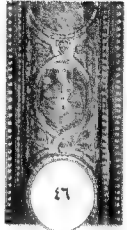
الثانى - صقلية



دولته وأمنها، فقد كان المسلمون يشكلون أكثرية السكان، كما كان العنصر الإسلامي بارزاً في جيشه. ويحدثنا صاحب سيرة القديس أنسيلم (St. Anselm) بأن روجر منع رجال الدين الكاثوليك من تحويل جنوده المسلمين إلى المسيحية. ومع ذلك، فإن الكونت روجر بادر إثر دخول باليرمو إلى تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وكذلك فعل ببعض مساجد المدينة مما حدا بمؤرخ أوروي إلى التعليق على ذلك بقوله: 'وهذا موجز للرحمة التي كانت أوروبا تقدمها دائماً للعرب، فهي مشروطة بالقضاء على دينهم، وفي عزلهم ليكونوا جماعة ذات كيان منفصل'.

ومن الناحية الاقتصادية، كان الغزو النورمانى لصقلية ذا أثر سيئ على أوضاع المسلمين الاقتصادية والمعيشية في الجزيرة. ففي أثناء القتال دمرت القرى على نطاق واسع، وكان على المسلمين - كاليهود - دفع إتاوة أو جزية مرتين في العام، مما أدى إلى هجرة أعداد منهم إلى إفريقية. وبدخول النورمان إلى الجزيرة دخلها النظام الإقطاعي. فاقطع روجر أقباءه وأصحابه أراضي واسعة كانت للمسلمين، واتخذ هؤلاء المقطعون المسلمين في الأرياف عبيداً أو أقتاناً في أراضيهم - وهم المشار إليهم في السجلات النورمانية، التي احتفظت باسمها العربي الدفاتر، باسم رجال الجرائد، أما أهل المدن، فقد كانوا أحسن حالاً نسبياً إذ كان تسليم مدنتهم، كما حدث في بلرم، بموجب اتفاقيات حفظت لهم - ولو إلى حين - حقوقهم المدنية والدينية في حين أن أهل الضياع والقرى فقدوا معظم أراضيهم للفرسان النورمان والكنيسة. وأصبح الكثيرون منهم عبيد أرض للسادة الجدد، ولعل ذلك يفسر قول ابن الأثير: وملك روجر جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حمّاماً ولا دكاناً ولا طاحونا ولا فرناً".

كان المسلمون عند استيلاء النورمان على صقلية يشكلون أكثرية السكان في إقليم مازرغرب الجزيرة، كما كانوا يكونون نسبة كبيرة من السكان في جنوبها الشرقي إقليم نوطس، أما في الركن الشمالي الشرقي من الجزيرة فقد كان المسلمون أقلية متناثرة في إقليم دمنش. إلا أن خريطة الجزيرة السكانية لم تلبث أن أخذت في التبدل على حساب المسلمين، لتوالي هجرة المسلمين من الجزيرة إلى إفريقية والأندلس والمشرق، ولوفود جماعات من النورمان من شمال فرنسا، ثم لتوالي هجرة اللمبارد من جنوب إيطاليا، وكان هؤلاء اللمبارد شديدي التعصب ضد المسلمين، وقد ارتكبوا ضدهم ألواناً من الاضطهاد طوال العهد النورمانى، وهم في ذلك شبيهون بالواقدين الجدد من الصليبيين إلى الأراضي المقدسة في فلسطين الذي يتحدث أسامة بن منقذ عن شدة تعصبهم الديني نحو المسلمين كما لمس ذلك بنفسه في بيت المقدس.



ويوضح شعور العرب واستيائهم لما آل إليه وضع مسلمي صقلية بعد وصول النورمان قول الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد (وهو إفريقي المنشأ صقلى الدار) :

عشتُ صقليةً يافعاً وكانت كبعض جنان الخلود  
فما قدر الوصل حتى اكهلت وصارت جهنم ذات الوقود

### روجر الثاني (١١١١ - ١١٥٤م) :

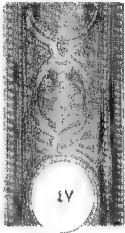
بعد فترة من الوصاية لأمه أدلايد، تولى روجر أمر صقلية، وروجر الثاني أشهر ملوك النورمان، وهو الذى وسع مملكة النورمان فى جنوب إيطاليا، وانتزع لنفسه من البابا - لقاء تأييده ضد خصومه - لقب "ملك صقلية" علم ١١٣٠م، بعد أن كان أبوه يحمل لقب «كونت» (قومس)، يقول الإدريسي : "أقام الدولة، وزين المملكة وشرف السلطنة، وأعطى الأمور أقساطها من النظر الجلى والعقل المرضى، مع نشور العدل وإقامة الأمان".

ونظراً لما لقيه من معاداة البيزنطيين وأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة الطامعين فى مملكته ، فإن روجر سار على سياسة أبيه فى تجنيد المسلمين والاعتماد عليهم فى مواجهة أعدائه، يقول ابن الأثير: "إن روجر أكرم المسلمين وقربهم، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه". والحق أن روجر وجد من مصلحته - إزاء الأخطار المحدقة به - أن يتجهج سياسة توازن الطوائف والممل والعناصر بين رعاياه.

ومما يذكر أن الملك روجر الثانى (استولى على جزيرة جربة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م فى شمال إفريقيا ، وعلى طرابلس الغرب سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م، وعلى المهديّة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٧م، وعلى معظم مدن الساحل التونسى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، وعلى بونة لاعنابة سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) وأضاف إلى ألقابه لقب "ملك أفريقية".

وقد سهل عليه أمر الاستيلاء على موانئ إفريقية حالة الضعف والتفكك السائدة هناك بسبب الفرقة والمنازعات، وسوء الأحوال الاقتصادية بسبب توالى أعوام الجفاف والقحط.

ومما حفزه على الاستيلاء على موانئ الساحل الأفريقى أن المسلمين ما فتشوا يغيرون منها على مراكز النصارى وعلى سواحل صقلية، إذ لم ينسوا ضياع صقلية من أيدي المسلمين، تماماً كما حدث بعد ذلك بأربعة قرون بالنسبة لمراكب الإسبان وسواحل الأندلس على أيدي النازحين



من الأندلسيين، فكما أن الإسمان سعوا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي إلى الاستيلاء على عدد من موانئ الشمال الأفريقي، أملاً في وقف إغارات النازحين الأندلسيين، كذلك فعل النورمان في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بالنسبة لموانئ إفريقية.

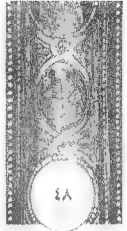
ولا شك في أن مما يسر الأمر في صقلية بالنسبة للنورمان انشغال المرابطين في تلك الفترة بقيام الموحدين الذين قضوا نهائياً على دولة المرابطين (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) ولم يتفرغ الموحدون للنورمان إلا بعد ذلك بوضع عشرة سنة.

لقد عرف روجر الثاني قيمة الحضارة الإسلامية واستفاد منها، وقلد العرب مناصب سامية في دولته، وله تحت رعايته ألف الإدريسي كتابه (نزهة المشتاق)، وسماه كتاب روجار، وفي مقدمة الكتاب وصف الملك «بالمملك العظيم المعتر بالله المقتدر بقدرته»، ولا شك أن جود الإدريسي -العالم الجغرافي الكبير والشريفى المحتد- رفع من مكانة روجر في أعين رعاياه من المسلمين، ولذلك ليس من الغريب أن يتناقل الناس إسلامه.

ولقد وصفه ميخائيل أماري بأنه "سلطان عربى يحمل تاجاً كملوك الفرنج"، واتهمه النصارى بأنه كافر. ودفعاً للظن عن نفسه، فإن روجر أقبل على تشييد الكنائس، كما أنه شجع في أواخر أيامه حركة التنصير بين المسلمين واليهود. وقبيل وفاته، غضب روجر على قائد أسطوله فليب المهودى؛ لأنه أغضى عن جماعة من صلحاء المسلمين وعلمائهم عند استيلائه على بونة (عنابة) سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى المجاورة. فلما وصل إلى صقلية أمر روجر بالقبض عليه، وعن ذلك يقول ابن الأثير: «وكان فليب يقال إنه وجميع فتيانه مسلمون ويكتمونه، وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم. فجمع رجال الأساقفة والقسوس والفرسان، فحكموا بأن يُحرق فأُحرق في رمضان، وهو أول وهن دخل على المسلمين بصقلية»، وقد يكون من أسباب تغير سياسة رجال في أواخر أيامه ظهور دولة الموحدين كقوة كبيرة في المغرب، مما هدد مواقع النورمان على الساحل الأفريقي، بل ووجودهم في صقلية ذاتها.

### وليم / غليام الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) :

في السنوات الأولى من حكم وليم (غليام) الأول زاد نفوذ كبير وزرائه (مايو) مايون زعيم حزب القصر الذى ناصره كثير من المسلمين لاعتمادهم - وبخاصة فتيان البلاط وحجابه - على الملك لحمايتهم من بطش حزب النبلاء المعادى والذي كان يمثل المؤرخ النورمانى فلقندوا، وهو



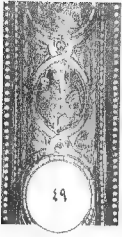
الذى أصفى على الملك وليام / غليام الأول صفة السيئ، وهى صفة لم يكن الملك فى الحقيقة يستحقها، وإنما نعتة فلقدنوا بذلك لا لشيء إلا لأنه أبدى تسامحاً نحو المسلمين.

ومع أن المسلمين ظلوا أتباع الملك الذى كان حاميههم فى جو مشحون بالعداء نحوهم من جانب النبلاء والسلمبارد ورجال الدين النصارى، إلا أنهم دفعوا ثمن انتصار الموحدين على النورمان فى المهديّة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) إذ انتعشت آمالهم بظهور قوة الموحدين، وبعد إخراج النورمان من مدن الساحل الأفرىقى ما بين عامى ١١٥٦ - ١١٦٠م) لذلك، وتحوطاً، فقد جرّد المسلمون فى بلرم من السلاح، مما جعلهم لقمة سائغة للبارونات والوافدين من اللومبارد فى الثورة التى قام بها هؤلاء ضد الملك ووريه وفتيانه (١١٦٠ - ١١٦١م).

وفى تلك الثورة الدامية اغتيل الوزير مايو/ مايون، والعديد من فتيان القصر وموظفيه المسلمين، كما قُتل كثير من المسلمين فى أحياء بلرم وسلبت أموالهم "وقتل الفرسان كثيرين فى متاجرهم وفى الدواوين، ومن وجدوه يتجول خارج منزله فى شوارع المدينة"، وعلى أثر هذه المذابح لم يعد المسلمون يستشعرون الأمن فى وسط مدينة بلرم، فاجتمعوا فى حى من المدينة يسهل عليها منه الدفاع عن أنفسهم، وكان من بين ضحايا هذه الثورة الدموية - وهى الأولى من نوعها فى العهد النورمانى - الشاعر القفصى يحيى بن التيفاشى، ولعل الإدريسى كان من بين ضحاياها أيضاً.

وكذلك كانت أحوال المسلمين فى الأرياف أسوأ من ذلك، إذ تعرضوا لفتك نبلاء النورمان وأتباعهم، ونجا بعضهم متزيباً بزي النصارى، وقد انتابهم رعب شديد فى المناطق التى كان يسكنها اللومبارد، حتى إنهم ظلوا يتحاشون المرور بتلك المناطق ما أمكنهم ذلك. ولما استرد الملك رمام الموقف وقمع الثورة، بادر إلى اتخاذ إجراءات صارمة ضد الثائرين مستعيناً بجيشه الذى كان يضم عدداً وافراً من الجنود المسلمين.

إن العداء ضد المسلمين من جانب الإقطاعيين من البارونات ومن جانب الأعداء المتزايدة من اللومبارد الذين وفدوا من إيطاليا للاستقرار فى الجزيرة، كان مبعثه التعصب الدينى، ثم الغيرة لما كان للمسلمين من مناصب ونفوذ فى القصر ونشاط فى مجال التجارة كذلك فإن الإقطاعيين ما فتئوا يحاولون توسيع ممتلكاتهم بانتزاع المزيد من الأراضى من أيدي المسلمين بحجة أنها كانت فى الأصل للنصارى.

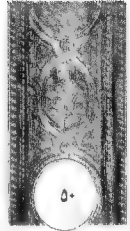


أضف إلى ذلك ظهور قوة الموحدين وخشية النصارى من تواطؤ مسلمى صقلية معهم لإعادة السيادة الإسلامية على الجزيرة. ولم يكن شعور مسلمى صقلية هذا بالأمر المستغرب. فقد كانوا دائماً يتلقفون- عن طريق الحجاج والتجار المسلمين المارين بالجزيرة- أخبار المسلمين فى المشرق والمغرب، كما يتبين ذلك مما ذكره الرحالة الأندلسى ابن جبير فى رحلته، ويقول الأهروى أنه اجتمع فى صقلية بالقائد أبى القاسم بن حمود زعيم مسلميها فسلمه كتاباً إلى السلطان الموحدى يحثه فيه على الاستيلاء على الجزيرة، وعند مرور ابن جبير بصقلية (٥٨٠هـ / ١١٨٥م) كان أبو القاسم ابن حمود مغضوباً عليه من الملك

النورمانى، إذ كما يقول ابن جبير، «ألزمه داره بما طلبية توجهت عليه من أعدائه افترخوا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مسخاطبة الموحدين، أيدهم الله، فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال»، وما يُذكر أن الشاعر المصرى ابن قلاقس كان قد حل ضيفاً على ابن حمود (٥٦٣هـ / ١١٦٨)، قبل أن ينكبه الملك النورمانى، ومدحه بعدة قصائد وألف له كتاب (الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم).

لقد كان القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى فترة اندلاع الحروب الصليبية فى المشرق، كما كان كذلك فترة بزوغ الدولة الموحدية فى المغرب والأندلس؛ ولذلك فليس من الغريب أن نجد العامل الدينى ذا أثر كبير فى أوضاع المسلمين الذين شعروا بالانقطاع عن دار الإسلام، وبأنهم صاروا رهائن تحت رحمة النصارى؛ لهذا ينقل لنا ابن الأثير ما قاله صاحب صقلية وليام / غليام الأول وقت استيلاء السلطان الموحدى عبد المؤمن بن على على المهديّة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) : «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهديّة، قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم» مما يبين بأن مسلمى صقلية أصبحوا كالرهائن يتصرف بهم حسبما تملئ عليه الظروف وعلاقاته بالدول الإسلامية خارج الجزيرة.

وما يبين اشتداد روح الاضطهاد الدينى فى الفترة التى أعقبت إخراج النورمان من شمال إفريقيا ما حدث لروبرت كالاتايانو الذى اتهم - كما حدث من قبل لفليب المهدوى قى نهاية حكم روجار الثانى (٨٤٥هـ / ١١٥٤م) - بإظهار النصرانية وحسن معاملة المسلمين، فاضطهده وزج به فى السجن حيث مات مسجوناً. «وبالتأكيد فقد كان أمراً خطيراً بالنسبة لمسيحي - حتى أو بالأخص إذا كان ثرى - أن يكون له أصدقاء من العرب، حتى أو بالأخص إذا كان هؤلاء من رجال البلاط».

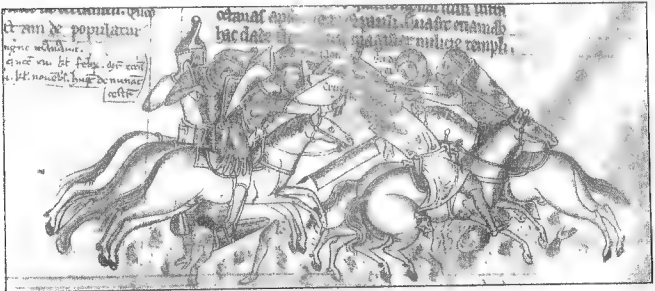


ومع ذلك فإن المسلمين فى صقلية رأوا فى الملك حاميمهم ضد الفرسان  
واللمبارد وغلاة النصارى المتربصين بهم. فأزروه عليهم لردعهم وخضد  
شوكتهم. ويقول فلقدندو : إن نساء بلرم المسلمات شيعن نعشه (وليام / غليام  
الأول) يوم مات بدموع صادقة لا تشبه الدموع الرسمية التى كانت تسيل من  
عيون سائر النداب، وبعد وفاة وليام / غليام الأول وتولى أرملته الوصاية على  
ابنها. قدمت عام ١١٦٧م شكاوى من النصارى - وبخاصة اللمبارد - فى بلرم  
ضد مسلمين يشغلون مناصب كانوا قد تنصروا ولكن خصومهم اتهموهم  
بكتمان إسلامهم.

لذلك فقد رأى بعض المسلمين. بما فيهم رئيس حجاب القصر، أن الوقت قد حان للنزوح  
إلى ديار الإسلام فى المغرب بيعض مالمهم.

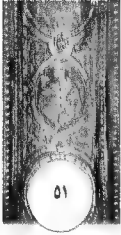
كان وليام / غليام الثانى فى الثالثة عشرة من عمره عند وفاة أبيه، ولم يباشر الحكم بنفسه  
إلا فى عام ١١٧١م. وبخلاف أبيه، فقد كان محبوبا من رعاياه النصارى؛ ولذلك أطلقوا عليه  
لقب "الطيب" (The Good). ولعل رضاهم يرجع إلى موقف هذا الملك من رعاياه المسلمين،  
وإلى نشاطه فى محاربة المسلمين فى المغرب والمشرق.

فقد جهز حملات عبر البحر المتوسط بدافع دينى فى المقام الأول، وكذلك لحماية تجارة  
صقلية الخارجية، ولتأمين المواصلات البحرية بين أوروبا والأراضى المقدسة أثناء الحملات  
الصليبية. وفى الفترة ما بين سنتى ١١٧٤م-١١٧٨م شن أسطوله عدة غارات على سواحل مصر  
دون جدوى، بفضل ما كان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد أعده من قوة عسكرية مصرية.



صلاح الدين فى الحروب الصليبية - مكتبة فرنسا الوطنية





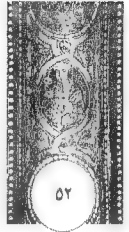
وفى عام ١١٨٠ - ١١٨١م أرسل وليام الثانى أسطولا لمهاجمة الجزائر الشرقية (جزر البليار) التى كانت آنذاك تحت سيطرة بنى غانية المرابطين. ولكن الحملة باءت بالفشل، إذ كان الجنويون حلفاء وليام الثانى قد عقدوا صلحا منفردا مع بنى غانية. وأبرم وليام الثانى فى هذه الفترة معاهدة مع السلطان الموحدى أبى يوسف يعقوب المنصور لأسباب تجارية، فضلا عن عدااء الجانيين لبنى غانية.

وكان وليام الثانى من بين أول من حمل الصليب من ملوك أوروبا فى بداية الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩١م) التى قامت إثر انتصار السلطان صلاح الدين الأيوبي فى معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) واسترداده لبيت المقدس من أيدي الصليبيين. ومع أن وليام الثانى لم يشارك شخصيا فى الحملة الصليبية الثالثة إلا أن أسطوله لعب دورا مهما فى العمليات الحربية قرب ميناء اللاذقية. ويعلق على ذلك مؤرخ حديث بقوله: «لم يحكم البلاط النورمانى شديد الحماس للفكرة الصليبية، إلا أنه كان دائما على استعداد لاستغلال ولاء النصارى لهذا الغرض».

كان وليام كأبيه وجده من قبله ملما بالعربية، كما كان يولى اهتماما كبيرا للعلوم والمعارف الإسلامية وبخاصة فى مجال الطب والفلك. وقد كانت فترة حكمه فترة مهددة للإسلام فى الداخل. وكانت أوضاع المسلمين فى صقلية فى عهد وليام الثانى واضحة بفضل ما تركه - الرحالة الأندلسى ابن جبير فى رحلته الشهيرة. فقد مر الرحالة الأندلسى ابن جبير بصقلية فى طريق عودته إلى بلاده بحرا بعد تأدية فريضة الحج، وكان ملكها آنذاك وليام / غليام الثانى. وأمضى ابن جبير فى الجزيرة قرابة أربعة شهور، وترك لنا فى رحلته انطباعات تلقى ضوءا ساطعا على وضع المسلمين فى الجزيرة بعد قرن من انتهاء السيادة الإسلامية عليها.

وما ذكره هذا الفقيه والأديب الأندلسى يعد بحق وثيقة تاريخية صادقة وبالغة الأهمية عن أوضاع المسلمين فى الجزيرة لذلك العهد. وقد دون ابن جبير انطباعاته على شكل يوميات أورد فيها مآراه بنفسه وما سمعه من المسلمين الذين اجتمع بهم. وصل ابن جبير إلى ميناء "مسينه" قادما على ظهر مركب جنوى أقله ورفاقه الحجاج من عكا بفلسطين. وعن المسلمين فى مسينه يقول ابن جبير أنه ليس فيها من المسلمين إلا نفر يسير من ذوى المهن؛ ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب. وهو بذلك يؤكد ما هو معروف من أعداد المسلمين فى الركن الشمالى الشرقى من الجزيرة كانت قليلة. بخلاف الحال فى الأجزاء الجنوبية والغربية منها.

ويحدثنا ابن جبير عن الملك النورمانى وليام غليام الثانى فيقول: «وشأن هذا الملك عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجاذيب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانهم



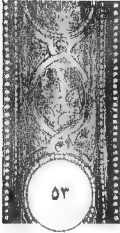
تمسك بشريعة الإسلام ... وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ووزراء وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أهل الدولة ... ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته، على ما أعلمنا به أحد خدمه المختصين به : الحمد لله حق حمده. وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكرا لأنعمه».

ويثنى ابن جبير على أولئك الفتيان المسلمين في خدمة الملك لصلبهم وافتكاكهم الأسرى من المسلمين. ومع ذلك فإنهم كانوا يكتُمون إيمانهم ويبدون التحفظ والحذر. من ذلك أن ابن جبير لقي منهم بمسينة «فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم وكبرائهم... فاحتفل في كرامتنا وبرنا، وباح لنا بسرهم المكنون بعد مراقبة منه مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه ... وقال لنا : انتم مدلون بإظهار الإسلام ... ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا معتقلون في مملكة كافر بالله، قد وضع في أعناقنا رقبة الرق، فغابتنا التبرك بقاء مثلكم من الحجاج ...». ويضيف ابن جبير أن «من عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضمون صلاتهم ...» وعلم ابن جبير أنه كانت قد وقعت في صقلية زلازل فكان هذا المشرک (وليام الثاني) يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتياته، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم : ليدكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به، تسكيناً لهم».

وبعد أن أمضى ابن جبير تسعة أيام في مسينة. توجه بحرا قاصدا العاصمة بلرم التي يقول أن المسلمين يعرفونها «بالمدينة» أو «بمدينة صقلية»، بينما يعرفها النصارى باسم «بلارمه»، فمر بمدينة شفلودي على ساحل صقلية الشمالي، ولاحظ أن المدينة تسكنها طائفة من المسلمين، ثم مر ببلدة ثرمة «وللمسلمين فيها رضى كبير لهم فيه المساجد». ومن ثرمة توجه ورفاقه برا إلى بلرم.

أقام ابن جبير في العاصمة بلرم أسبوعا وترك لنا وصفا حيا شائقا لأحوال المسلمين فيها: «وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان، يعمرن أكثر مساجدهم ويقىمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكانهم عن النصارى. والأسواق مغمورة بهم. وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحذورة عليهم. ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسى. ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ... وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريتهم ولا أبنائهم».

من هذا يتبين أن مسلمى بلرم كانوا يعيشون فى حالة فزع مستمر من الاضطهاد والبطش.



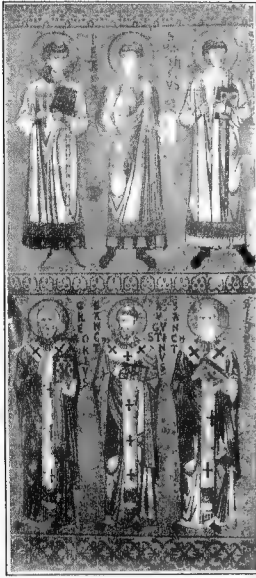
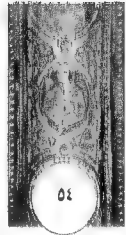
كما يلاحظ بأن الخطبة فى العيدين تكون الدعوة فيها للخليفة العباسى، وكان ضعيفا نائيا فى بغداد، وليس للخليفة الموحدى القوى الأقرب إليهم فى المغرب، وذلك للعداء المستمر بين الموحدىن والروم سواء فى الأندلس أو فى صقلية النورمانية.

ويتحدث ابن جبير عن الإتاوة التى فرضها النورمان على مسلمى الجزيرة، فضلا عن القسيود الأخرى، فيقول إنهم "ضربوا عليهم إتاوة فى فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها".

ومن باليرمو قصد ابن جبير ميناء اطرابنش (Trapani) فى غرب الجزيرة، وهو الميناء الذى كان يبحر منه الحجاج والتجار المسلمون المتوجهون إلى الأندلس والمغرب، ومر فى الطريق ببلدة علقمة (Alcemo)، ولاحظ أن سكانها وسكان الضياع فى الطريق كلهم مسلمون، مما يدل على أنه حتى بعد قرن من زوال السيادة الإسلامية على الجزيرة بقيت الأجزاء الغربية منها، وبخاصة الأرياف، مأهولة بالمسلمين.

طال مقام ابن جبير فى اطرابنش مضطرا، وذلك لتعذر الإبحار منها بسبب الأنواء والأحوال الجوية، وقد مكنه ذلك لحسن الحظ من التعرف على المزيد من أحوال مسلمى البلدة ومسلمى صقلية عامة. فنترك لنا معلومات بالغة الأهمية عن حالة القلق التى كان يشعر بها مسلمو الجزيرة وخوفهم مما يخبئ لهم المستقبل : فهو (ابن جبير) يقول لهم: «وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل الجزيرة مع عبّاد الصليب بها. دمرهم الله، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهد الذمة وغلظة الملك ... فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم (يعنى بلرم) ...» ويعرف «بابن زرعة». ثم يحدثنا ابن جبير عن اجتماع بزعيم مسلمى صقلية القائد أبى القاسم بن محمود، المعروف بابن الحجر. وقد قدم اطرابنش أثناء مقام ابن جبير فيها، فيقول : " وكان هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ( وليام الثانى ) ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحداث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدىن ... وتوالت عليه المصادرات التى أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنة (نسبة لعبد المؤمن بن على أول سلاطين الموحدىن) ... فاتفق فى هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره بالنفوذ لهم أشغاله السلطانية، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند وصوله إلى هذه البلدة ( يعنى إطرابنش ) رغبة فى الاجتماع بنا، فاجتمعنا به، فأظهر لنا من باطن حاله، وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يُبكي العيون، ويذيب القلوب ألما، فمن ذلك أنه قال: كنت أود أن أبيع أنا وأهل بيتى، فلعل البيع يحمنا مما نحن فيه، ويؤدى بنا إلى الحصول فى

بلاد المسلمين... ومن عظم هذا الرجل حمودى فى نفوس النصارى، أبادهم الله، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به...».



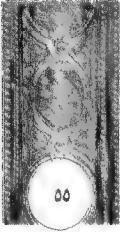
ونتيجة للضغط التى كان يتعرض لها المسلمون فى صقلية ، فإن روابط الأسر قد تفككت ، ولم يعد للأب سلطة على أبنائه وعن ذلك يحدثنا ابن جبير فيقول : «ومن أعظم ما ابتلى به أهل هذه الجزيرة إن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته ، أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ، فلا يجد الأب لابن سبيلاً ، ولا لأم للبت سبيلاً ، فتخيل حال من يمضى بمثل هذا فى أهله وولده ، ويقطع عمره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر فى مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال ، كل ذلك جعل بعيدى النظر من المسلمين فى الجزيرة يخشون أن يحل به ما حل بمسلمى جزيرة إقريطش (كرت) بعد استيلاء البيزنطيين عليها من أيدي المسلمين عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) ، فإنه لم تزل بهم المملكة الطاغية من النصارى والامتزاج الشئ بعد الشئ وحالاً بعد حال حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .

قديسون- تصوير جدارى كاتدرائية

سيفلو- صقلية القرن ١٢م

ما ذكره ابن جبير يُستخلص أن المسلمين فى جزيرة صقلية بعد قرن من زوال السيادة الإسلامية عن

الجزيرة ، كانوا معرضين للقيود والاضطهاد . فبعضهم تنصر مكرهاً ولكنه كان يكتم إيمانه ، وصلاة الجمعة كانت محظورة عليهم ، وكان عليهم دفع إتاوة تقابل الجزية التى كان أهل الزمة يدفعونها للمسلمين ، وكانت عملية التنصير قائمة وتلقى التشجيع من جانب الكنيسة ، وأخيراً فإن زعماء المسلمين ، كأبى القاسم بن حمود ، كانوا دائماً عرضة للاتهام بالتواطؤ مع الموحدين . وكان الموحدون آنذاك فى أوج قوتهم فى المغرب والأندلس ، فليس من الغريب أن يتطلع مسلمو



صقلية إلى عونهم ونجدهم، كما تطلع مسلمو الأندلس إلى لحجة المرابطين قبل ذلك بقرن من الزمن. وأن ينظر النورمان بالتالي بعين الريبة إلى رعاياهم المسلمين. وكل ذلك كان يشجع على الهجرة إلى أرض الإسلام ، وهذه الرغبة كثيراً ما عبر عنها لا بن جبير زعماء المسلمين في الجزيرة في أحاديثهم الخاصة معه. وكما يقول مورينو "الحاصل كان التوازن بين أتباع الديانتين عادم القرار، رغما عن مجهودات الحكام ، فما كان للمسلمين أن يرضوا بالخضوع بعد أن كانوا أسياداً، وأن لا يتطلعوا إلى إعادة الأمور إلى نصابها.

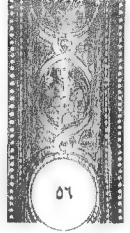
### تانكريد (١١٩٠ - ١١٩٤):

لم يُخلف وليام / غليام الثاني عقباً ، فأوصى بأن تخلفه على عرش صقلية عمه كونستانس ابنة روجار الثاني التي كانت متزوجة من الإمبراطور الألماني هنري السادس. إلا أن النبلاء الإقطاعيين في صقلية اختلفوا فيما بينهم وأتى فريق مناهض للألمان منهم في عام ١١٩٠ ، بتانكريد إلى العرش ، وكان تانكريد هذا حفيداً غير شرعي لروجر الثاني.

وقبل أن يتولى تانكريد الملك، حدثت مذبحة للمسلمين في بلرم عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م، وكان تانكريد شديد التعصب ضد المسلمين، فليس من الغريب لذلك أن يتشاءموا عند توليه الملك، بتأييد من أعدائهم، وأن يقوموا بثورة عارمة شغلته طوال السنة الأولى من حكمه (استمرت

*الكاتدرائية التي توج فيها الملك فريديريك الأول - قائد الحروب الصليبية*





هذه الثورة من نهاية ١١٨٩ إلى أكتوبر عام ١١٩٠م). ونظرا لتعرض مسلمي بلرم للمذابح - كما حدث لهم من قبل في عام ١١٦٠ - ١١٦١ م ، فقد فر معظمهم معتمداً بالمناطق الجبلية في وسط الجزيرة وغربيها، حيث احتلوا عدداً من المعاقل المنيعه ، وانضم إليهم فيها عبيد الأرض المسلمون الكادحون في إقطاعيات نبلاء النورمان. وقدر عدد هؤلاء المسلمين الثائرين في غرب الجزيرة بنحو مائة ألف، بما فيهم النساء ، «وقد كانت هذه الثورة وقمعها بداية النهاية للوجود الإسلامي في جزيرة صقلية».

وهكذا انتهت فترة التعايش جنباً إلى جنب بين الطائفتين ، ولعل الأخطار الخارجية المحدقة بتانكريد من ناحية الألمان من جهة ، ومن ناحية الموحدين من جهة أخرى زادت من تعسفه و غلوه في سياسته نحو المسلمين تحوطاً وكسباً للرأى العام النصراني في الجزيرة وخارجها.

أصبح وضع المسلمين في صقلية حرجاً للغاية في فترة الفوضى التي سادت الجزيرة بعد وفاة وليام الثاني (أى بعد خمس سنوات فقط من مرور ابن جبير بالجزيرة) إذ إن أمنهم كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود سلطة مركزية قوية. أما الآن وقد ضعفت سلطة الملك في أواخر الفترة النورمانية ، فقد أصبح وضع المسلمين صعباً، لأن طبقة النبلاء الإقطاعيين تحالفت مع الكنيسة الكاثوليكية التي رأت في تنصير المسلمين عملاً دينياً صالحاً.

أما أولئك المسلمون الذين رفضوا التنصر ، فقد لجأوا إلى الهجرة. وكانت هجرة المسلمين من صقلية إلى شمال إفريقية والأندلس والمشرق قد بدأت - في الحقيقة- منذ أن وطئت أقدام النورمان أرض الجزيرة إذ نزع أشهر شعراء صقلية ابن حمديس عن مسقط رأسه سرقوسة بعد كفاح ضد المغيرين النورمان سنة ٤٧١هـ / ١٠٨٧م )، واستمرت الهجرة طوال فترة حكم النورمان للجزيرة. ومن الطبيعي أن هذه الهجرة كانت تزداد في فترات الاضطهاد وعدم الاستقرار كما حدث عام ١١٥٣م ، وأثناء مذابح عام ١١٦٠ - ١١٦١م ، وأصبحت الهجرة على نطاق أوسع بسبب المذابح والثورة عام ١١٨٩ - ١١٩٠م / ٥٨٥ - ٥٨٦هـ.

وبعد وفاة "تانكريد" عام ١١٩٤م (٥٩٠هـ) ، خلفه ابنه الصبي وليام الثالث تحت وصاية والدته، وفي هذه الأثناء زحف الإمبراطور الألماني هنرى السادس جنوباً ، واستولى على مملكة صقلية باسم زوجته كوتستانس ، منهياً بذلك الفصل النورمانى من تاريخ الجزيرة (١١٩٤م).



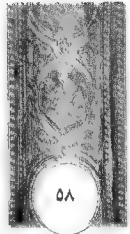
## الحياة الاقتصادية فى صقلية الإسلامية

أعطى الجغرافيون المسلمون صورة اقتصادية لصقلية فى العهد الإسلامى . فزار ابن حوقل مدينة بلرم فى صقلية وتحدث عن أسواقها : «وأكثر الأسواق فيما بين مسجد ابن سقلاب، والحارة الجديدة، كسوق الزيتين بأجمعهم ، والدقاقين، والصيارفة، والصيادين، والحدادين، والصياقلة (الذين يصقلون المعادن)، وأسواق القمح، والطرازين، والسماكين، وطائفة من القصابين، وباعة البقل (الحبوب)، وأصحاب الفاكهة، والريحانيين، والجرارين، والحبازين، والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين الحمّالين، والأساكفة، والدباغين، والنجارين، والحشابين خارج المدينة، وبيلمر طائفة من القصابين، والجرارين، والأساكفة (الذين يصلحون الأحذية)، وبها للقصابين دون المائى حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم فى المدينة برأس السمات، ويجاورهم السقطانون، والحلاجون، والحذاؤن، وبها أكثر من سوق صالح.

وأضاف ابن حوقل أن فى بلرم " سوقا قد أخذ من شرقها إلى غربها ويعرف بالسمات، قد فرش بالحجارة، وانه عمر من أوله إلى آخره بضروب التجارة " . أما الأصطخرى فيقول عن صقلية : «وبصقلية من الخصب والسعة والزرع والمواشى والرفيق أكثر ما يقع منها ما يفضل على سائر ممالك الإسلام المتاخمة للبحر». ويصف المقدسى صقلية فيقول : «وصقلية جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجمل ولا أعمر، ولا أكثر مدناً منها».

وتحدثنا بعض المراجع الاقتصادية لصقلية وتذكر : أنه يوجد بمتحف بلرم ودير الكهف مجموعة من الوثائق الإسلامية التى يرجع تاريخها إلى عهد السيادة الإسلامية على الجزيرة، والتى تتضمن جداول المكوس التى تضمنتها المعاهدات التجارية، الإسلامية وهى تدل دلالة واضحة على ما بلغت التجارة فى صقلية من اتساع وازدهار وهى التجارة التى كانت تربط بين صقلية وإفريقية، والمشرق والأندلس .

فالنصوص السابقة تؤكد بأن النشاط الاقتصادى فى صقلية كان مزدهراً، وأن صقلية بحكم موقعها المتميز جغرافياً وتعدد موانئها كانت من أفضل الديار الإسلامية انتعاشاً فى مجال الاقتصاد.



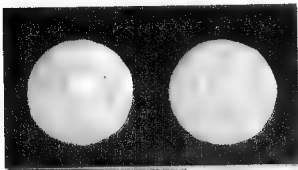
والموارد المالية فى صقلية متعددة المصادر. فمنها الغنائم التى تؤخذ من الأعداء فى أثناء حروبهم مع المسلمين، ومن ذلك أن مال الهدنة المتفق عليه بين والى صقلية، وبين أعدائه قد منع دفعه، حيث ذكر ابن الأثير أنه فى إحدى السنوات امتنع الكفار من إعطاء مال الهدنة، ومنها مال الجزية - وتعرف أيضاً بالجوالى - الذى كان يفرض على أهل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الإسلام، فى مقابل الكف عنهم والحماية لهم، وهى تجب على الرجال الأحرار دون الصبيان والنساء والعبيد والرهبان.

كذلك نجد أن من الموارد المالية الخراج المفروض على أراضى غير المسلمين. وكذلك ما يعرف " بمال البحر " وهو ما يؤخذ على السفن عند رسوها فى موانئ الجزيرة، ويعرف أيضاً بالمكوس. ومن الموارد المالية ما أشار إليه ابن حوقل من أن أهل صقلية مطالبون كلهم بالجهاد والانضمام إلى الجيش، إلا من بذل الفدية عن نفسه، أو أقام العذر فى تخلفه مع رابطة السلطان، فكان ما ذكره ابن حوقل ضريبة تدفع إلى بيت مال المسلمين.

كذلك كان من الأموال التى ترد إلى بيت المال فى صقلية، الزكاة وعشور أراضى المسلمين، وأموال الوقف، ومال من لا وارث له.

يضاف إلى ما سبق ما كان يصل إلى صقلية من الدول الإسلامية التى تقع صقلية تحت سيطرتها. فالأغالب كانوا يمدون صقلية بالمال، وخاصة وقت الحملات العسكرية لفتح مدينة، أو تأديب طائفة خارجة.

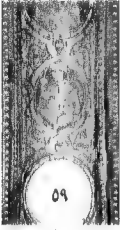
كما كان الفاطميون يرسلون الأموال والطعام إلى صقلية، وذلك إما لممدد عسكري، أو هبات وهدايا، كما فعل المعز لدين الله الفاطمى عندما أرسل إلى والى صقلية أحمد بن الحسن الكلبي مائة ألف درهم، وخمسين حملاً من الصلات تم توزيعها على أطفال الجزيرة.



دينار ذهبى باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى

ويجمل ابن حوقل عند حديثه عن صقلية بعد مواردها الاقتصادية فيقول : " إن مال جزيرة صقلية فى وقتنا هذا، وهو أجل أوقاتها - وكان ذلك سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م - وأكثره، وأغزره بأجمعه من سائر وجوهه، وقوانينه، خمسها، ومستغلاتها، ومال اللطف، والجوالى (الجزية) المرسومة على الجماجم (الرؤوس). ومال البحر، والهدية الواجبة





فى كل سنة على أهل قلورية، وقبالة الصبود، وجميع المرافق وجهاتها وهذه جملة ارتفاعها " فالمستغلات المذكورة فى النص تدل على نوع محدد من الضريبة، أما الخمس فهو ضريبة معينة عدها ابن حوقل من جملة ما تحصله الدولة بصقلية، وكان للخمس ديوان عرف متوليه باسم (صاحب الخمس) ومن تولى إدارته عمران الذى قتل فى بلرم سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠م. وخليل الذى ضبط المدينة حين خلت من اليها سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م، ومنهم محمد بن الفضل الرقباني الموصوف بأنه ينبوع الكرم والإحسان والفضل والامتنان. أما الجوالى فهي الجزية وقد سبق توضيحها. وكذلك سبقت الإشارة إلى مال البحر، أما الهدية الواجبة على أهل قلورية فهي مال الهدنة التى تدفع بشروط معينة، وأحيانا يمتنع النصارى عن دفعها خاصة إذا كان هناك ضعف فى حال المسلمين.

أما القبالي فهي نوع من أنواع طرق جباية الضرائب. فمثلا كانت المصايد تعرض على متقبليين (أشبه بنظام الالتزام) بمبالغ معينة. وقد يكون المتقبل هو المباشر للعمل، أو يتدب له من يريد. وكان يقصد بكلمة المرافق الضريبية التى تحصل على المراعى والمنتجات المحلية.

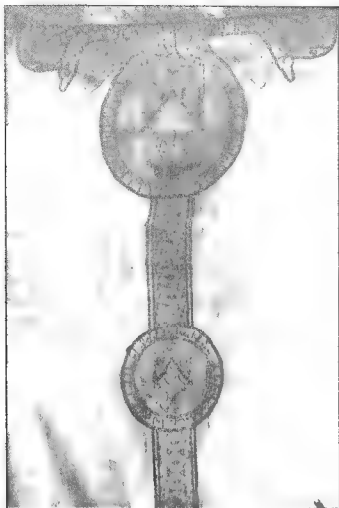
### أما بالنسبة للصناعة

فى صقلية : فقد ساعدت وفرة المواد الخام بصقلية على الإنتاج الصناعى بها، سواء كانت صناعات تعدينية، أو زراعية، أو حيوانية، فلقد كانت مناجم الجزيرة غنية بالمعادن. من ذهب، وفضة، وحديد وورصاص ونشادر وملح وكبريت. وقد ذكر ياقوت أن المعادن بها فى كل مكان وخاصة الذهب، وأنها تصدر منها إلى الأندلس. كما

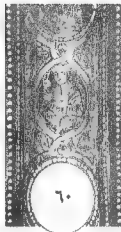


إبريق برونزى صنع صقلية - أسلوب الفاطميين - القرن ١٢م

اشتهرت صقلية بوفرة الحديد قرب موضع يقال له «بلهرا» ويعرف «بعين الحديد».



قطعة من النسيج مطرزة بأسلوب فاطمي



أما بالنسبة لمعدن الذهب، فقد كان متوفرا بكثرة في صقلية وخاصة في جبل عرف باسم جبل الذهب، وذلك لكثرة هذا المعدن فيه. ونظرا لكثرة الذهب بصقلية فقد صنع منه أخفاف تتعل بها

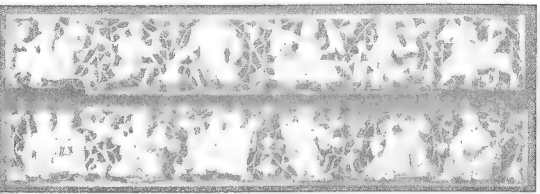
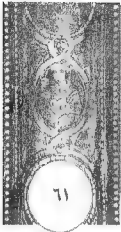
النساء. كما ذكر ابن جبير: " أنه كان لوفرة معدنى الذهب والفضة أثره في ظهور منسوجات صقلية مطرزة بالذهب والفضة على درجة عالية من الإتقان، حتى أن أوروبا أخذت هذا الفن عن المسلمين في صقلية " .

وكان لإتقان المنسوجات الصقلية المطرزة بالذهب والفضة أثره في شهرتها العالية في ذلك الوقت فصدرت إلى كثير من البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، فمن ذلك لمجد أنها متوفرة بكثرة في مصر وبخاصة في بيوت الأمراء والأميرات .

وعن ذلك يقول محمد كرد على : «إن أهل صقلية علموا أهل أوروبا صنع الحرير، أنه في مدينة نورمبرج بألمانيا رداء من حرير كان للملك صقلية، وفيه كتابات بحروف كوفية مما يدعو إلى الاعتقاد بأن صناعة صبغ الثياب انتشرت في أوروبا من صقلية» .

أما فيما يتعلق بصناعة السفن، فقد اهتم بها المسلمون اهتماما كبيرا، وذلك لكثرة الاحتياج إليها باعتبارها السلاح الأول لهم سواء في حياتهم الاقتصادية، أو في مجال الحروب. وقد وجد بصقلية أكثر من دار لصناعة السفن. وذلك نظرا لتوفر الأخشاب بها وخاصة في الجبل المسمى بجبل النار.

واشتهرت صقلية أيضا بالنقش على الأخشاب، وذلك لتوفر هذه المادة بصقلية، وتوفر النقاشون المهرة والذين وصلت شهرتهم إلى كثير من البلاد الإسلامية والأوروبية.



نقوش من الحياة على العاج بأسلوب فاطمي صنعت في مصر أو (صقلية) وقد  
نشأبت منتجات البلدين نظرا لسيطرة الناطقين عليها

كما كان الحديد ينتقل من صقلية إلى الهند في بعض الأحيان، ويصنع منه آلات حديدية عالية الجودة وغالية الأثمان.

ومن الصناعات التي نالت شهرة عالية في صقلية صناعة الورق، وصناعة حبال السفن، وصناعة الحصر التي تعتمد على توافر نبات البردي في صقلية، وفي ذلك يقول ابن حوقل : «وفي خلال أراضيها بقاع، قد غلب عليها البربر وهو البردي الذي يصنع منه الطوامير. ولا أعلم لما بمصر من هذا البربر نظيرا له على وجه الأرض، إلا ما بصقلية منه، وأكثره يقتل حبالا لمراسي المراكب، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس».

ومن المعادن التي استخرجت وعُدَّت في صقلية، معدن الكبريت الأصفر، الذي لا يوجد بموضع مثله، وله قطاعون وعمال عاملون بتناول ذلك. وقد سقطت شعورهم وتصلبت أظافرهم من شدة حره وبيسه، ويذكر أنهم يجدون في بعض الأرملة سائلا مانعا فيحفرون له في الأرض أماكن فيجتمع فيها ويجدون في أرملة أخرى متحجرا حامضا ؛ فيقطعونه بالمعاول. كما كان يستخرج من صقلية زيت النفط من ثلاثة آبار عند قلعة ميناو من إقليم سرقوسة، وذلك في وقت معلوم من السنة خلال أشهر فبراير، ومارس وإبريل.

هذا بالإضافة إلى المهن والحرف التي ذكرها ابن حوقل وهي كالتالي : طائفة من الزياتين، والدقاقين، والصيارفة، والصيادين، والحدادين، والصياقلة، وطائفة تعمل في بيع القمح، ومنهم أيضاً الطرازين، والسماكين، والأبزارين، والقصابين، وباعة النبق، وأصحاب الفاكهة، والريحانيين، والجرازين، والخبازين، والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين، والآسكفة، والدباغين، والنجارين، والخشابين، والقطامين، والحلاجين، والحذائين.

أما فيما يتعلق بالنشاط التجاري في صقلية، فقد ساعد موقعها الإستراتيجي وكثرة موانئها على تقدمها في مجال التجارة. فقد كان موقعها في وسط الدول المعروفة آنذاك. يمثل حلقة وصل بين شمال أفريقية من جهة، وبين إيطاليا وغرب أوروبا من جهة أخرى. وقد انتعشت التجارة في صقلية أيام حكم المسلمين لها بعد أن كانت صفرا.



كما كان لكثرة الأسواق بصقلية أثره المباشر في نمو التجارة فيها، وقد سبق أن ذكرنا ما أورده ابن حوقل عن أسواق مدينة واحدة بصقلية وهي مدينة بلرم. كما ذكر الإدريسي أن مدينة سرقوسة كانت تشتهر بأسواقها المنظمة.

أما فيما يتعلق بالعملات النقدية التي كانت مستعملة في صقلية ؛ فمن المعروف أن صقلية خضعت للأغالبة، ثم الفاطميين وكانت كما الدولتين تتعاملان بالدرهم والدينار.

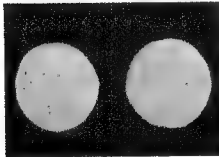
أما أول ذكر لسك عملة إسلامية في صقلية فكانت بعد دخول المسلمين إليها بزمان قليل. وكان ذلك في سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م عندما كان المسلمون محاصرين لسرقوسة ، حيث وجد نوع من العملة الفضية الرقيقة، كانت على شكل دائري من فئة الدرهم. وكتب على وجه من وجوهها اسم الأغالبة، ثم اسم ريادة الله بن إبراهيم وعلى الوجه الآخر اسم محمد بن أبي الجوارى، وهو قائد المسلمين في صقلية بعد وفاة أسد بن الفرات. وكان مكتوب عليه أيضا لفظ الجلالة (بسم الله) وتاريخ ومكان الإصدار حيث كتب (نقش في صقلية سنة ٢١٤هـ) وهو محفوظ بمتحف العملات في باريس.

كما توالى ضرب العملات في صقلية. ففي سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م ضرب في صقلية عملة من فئة نصف درهم. وفي سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٥م وجدت عملة مضروبة في صقلية ومكتوب على أحد وجهيها اسم بلرم ، مما يعني أن مدينة بلرم كانت مركز إصدار العملات الصقلية المحلية.

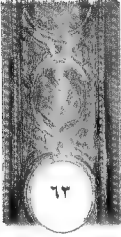
أما فئة الدينار الذهبي الكامل، فليست هناك إشارات تدل على أنه ضرب في صقلية، ولكن ضرب ربع دينار في صقلية على عهد الفاطميين في حدود سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م. وعن الرباعي يذكر مارتينو أن الإيطاليين قلده فقال : «يوجد في مملكة صقلية وناپولى طوال ثمانية قرون نقد يقال له بالإيطالية (الرينو) أو (تري) ، وإنما هو الرباعي الذى كان يضرب في صقلية في عهد الأغالبة والفاطميين، وقد قلده النورمان في بلرمو، وسالرنو، تاركين فيه كتاباته العربية، ثم قلده فرديريك الثانى وخلفاؤه».

وإذا كانت قد ضربت العملة في صقلية فإن ذلك لا يعنى عدم تداول عملة الدول التي كانت تتبعها حكومة صقلية داخل صقلية نفسها سواء في عهد الأغالبة، أو الفاطميين. فقد جاء ذكر الدينار في كثير من المبادلات التجارية بين سكان صقلية، وكذلك الدرهم.

كما ورد ذكر الدينار في الهبات والعطايا التي يمنحها حكام صقلية، لمن يريدون كما فعل إبراهيم بن عبد الله بن الأغلِب والى صقلية ٢٢١هـ - ٢٣٦هـ / ٨٣٦ - ٨٥١م عندما أمر بكيس دنابير وأعطاه لامرأة أطعمته فرخين من الطيور.



دينار ذهبي باسم الأغلِب بن الأغلِب ضرب تونس - عصر الأغالبة



## الحياة الاجتماعية في صقلية الإسلامية

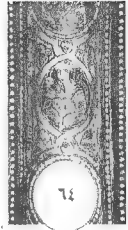
كانت صقلية قبل الفتح الإسلامي خاضعة للدولة البيزنطية، وذلك منذ عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)، وعلى يد قائده بلزاريوس في سنة ٥٣٥م، وكان فيها مجتمعات متباعدة من السكان، فكان فيها اليونانيون والرومان، وبقياء من القوط الشرقيين، يضاف إلى ذلك دخول الفاتحين إليها من المسلمين سواء كانوا عرباً أم بربراً.

كما كانت صقلية منفى للمذنبين، والمجرمين، والعساكر المتمردين، وكانت تقطنها جماعات قليلة العدد من اليهود، الذين تميزوا بانكماشهم على أنفسهم، وكره الأجناس الأخرى لهم. ولكنهم لم يكونوا كثيرى العدد. إضافة إلى ما سبق كان بصقلية مجموعة من العبيد، الذين هربوا من شدة الضرائب عليهم، وعملوا في مزارع الأغنياء، ودفعوا حرياتهم ثمناً لذلك.

شارع قديم له سلالم على غرار المدين

الفاطمية العربية- صقلية





وكان للفتوحات الإسلامية أثر في الهجرة إلى صقلية. فتذكر المصادر أن حسان بن النعمان الغساني، عندما أغراه عبد الملك بن مروان في سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م، ووصل إلى إفريقية، قصد قرطاجنة، وقاتل أهلها، فهربوا في البحر إلى الأندلس وصقلية.

والمجتمع الصقلي بصفة عامة، لم يكن مجتمعاً سعيداً مكفول الحرية في عهد الدولة البيزنطية. أما بالنسبة للغة السائدة قبل الفتح الإسلامي فكانت اللغة اللاتينية، أما لغة الكتابة فكانت اليونانية. ومن الناحية الدينية كان كنيسة صقلية مرتبطة بطريركية القسطنطينية. وجملة القول فإن صقلية البيزنطية، قد فقدت شخصيتها، ومقومات الحياة العمرانية فيها، وبلغت من الانحطاط درجة ليس ثمة ما هو أدنى منها أثناء الحكم البيزنطي.

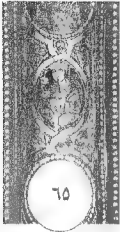
وكتيجة طبيعية للحال السابقة، فإن السكان في جزيرة صقلية، رحبوا بالفاتحين المسلمين. حيث رأوا أن الإسلام هو دين العدل والتسامح، الذي يكفل للأفراد حرياتهم، وللمجتمعات تقدمها. قال ميخائيل إماري: "كانت صقلية فقد أصبحت في داخلها وخارجها بيزنطية، وكانت مريضة بذلك الداء الويل الذي أصاب الإمبراطورية البيزنطية المنحلة؛ ولذلك فإننا إذا تأملنا حالتها السيئة، لا يؤسفنا ذلك الفتح الإسلامي الذي هزها هزاً وجددها تجديدًا. وقال إمبرتو: "ونحن نشارك إماري في رأيه الثاقب".

وللحديث عن الحياة الاجتماعية في صقلية، يجب أن نتحدث عن عناصر المجتمع الصقلي بإيجاز إذ إن المجال لا يسمح لدراسة ما يتعلق بكل مظاهر الحياة الاجتماعية فيها، فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة. واقتصرنا في الحديث عن عناصر المجتمع الصقلي، لا يعني أن الجوانب الأخرى في حياة صقلية الاجتماعية غير مهمة. ولكن لأن عناصر السكان وطبقاته المختلفة تمثل حجر الزاوية في بناء أى مجتمع، وبالتالي بناء الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية لذلك المجتمع. فاستقرار المجتمع، وتوافق سكانه بفئاتهم المختلفة، تمثل البداية للتقدم فى شتى المجالات، والمجتمع الذى أحدثته عنه هو الركيزة الأساسية فى بناء الحياة العلمية.

لذلك فإن عناصر السكان فى المجتمع الصقلي شملت ما يلى:

#### ١- العرب:

وكانوا يمثلون الأغلبية فى الجيش الفاتح بقيادة أسد بن الفرات (قاضى قضاء القيروان) فى سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م. يضاف إلى ذلك كثرة الهجرات العربية إلى صقلية، بسبب الجوع والغلاء.



كما هاجر كثير من العرب  
إلى صقلية بعد إعلان المعز  
بن باديس الولاء للعباسيين  
في سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م،  
فانتقم منه الخليفة الفاطمي  
المستنصر بالله (٣٠٠ -  
٣٥٠هـ) بأن حرض العرب  
على الجوار إلى الغرب،

فتوجه منهم خلق كثير، وهاجموا القيروان،  
وخربوها، فهاجر كثير من أهلها إلى صقلية.  
كما قد تكون الهجرات بسبب الخلافات  
المذهبية، وهو ما تجده واضحاً في هجرة عدد من  
الفقهاء الذين يميلون إلى المذهب العيسدي  
(الفاطمي الشيعي) من إفريقية إلى صقلية، في  
عهد سيطرة الفاطميين عليها.



تصوير جداري بأسلوب فاطمي بكنيسة بلاتينا - باليرمو

ونظراً لأن العرب كانوا يمثلون الأغلبية، نجد أنهم كانوا ينتمون إلى عدة قبائل عربية،  
فمنهم الأغالبة الذين حكموا إفريقية، وفتحوا صقلية، وتولوا إمارتها. والعرب في مجموعهم  
ينقسمون إلى عرب عدنانية، وعرب قحطانية، وكان العرب القحطانية يمثلون الأغلبية في صقلية.

فمن العرب العدنانية ما نسبته إلى التميمي كأبي عبد الله الإمام المازري، ومنهم من يلقب  
بالقرشي كأبي العرب مصعب المولود في صقلية، ومنهم من يلقب بالتغلي كطاهر بن محمد  
الصقلي، ومنهم من يلقب بالكناني كمحمد بن أبي الفرج الصقلي، ومنهم من يلقب بالفهري.

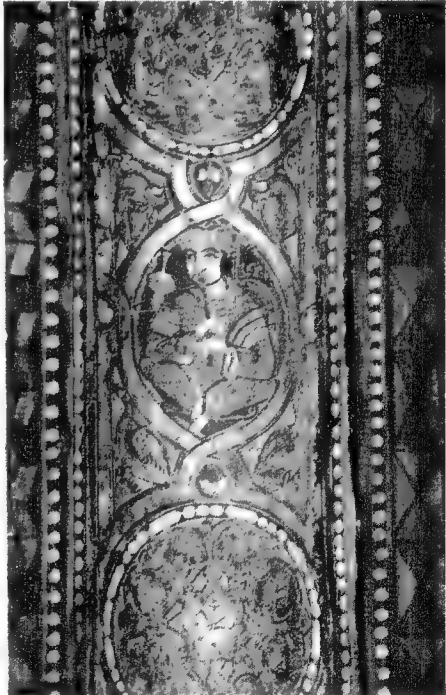
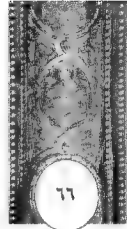
ومن العرب القحطانية في صقلية نجد أسرة آل الكلبي، التي حكمت صقلية، ومن يعود في  
نسبه إلى العرب القحطانية من كان لقبه الأزدي كابن حمديس الشاعر الصقلي المشهور ومنهم  
الأنصاري، والغصاني كأبي لقمان ابن يوسف والمعارفي واللخمي، والكندي، والزبيدي.

وكان العرب في صقلية يتركزون في مدن معينة. فقد كان عددهم كبيراً في ولاية مازرة،  
ومتوسطي العدد في ولاية نوطس وقليلي العدد في ولاية دمشق، ويدل على ذلك وجود قبور  
عربية وآثار وشواهد على تلك القبور، مكتوب عليها بالعربية. كما أن بعض الأماكن في صقلية  
عربية الصبغة.

وعلى الرغم من كثرة القبائل التي ينتسب إليها عرب صقلية، إلا أن ذلك كان عاملاً مهماً في عدم وجود نزاعات وخلافات بينهم. فقد كان هذا التنوع بين القبائل العربية سبباً من أسباب التوافق بينهم. وإنما الخلافات كانت تقع أحياناً بين العرب من جهة وبين البربر من جهة أخرى؛ ومن تلك الفتن ما حدث بين العرب والبربر في سنة ٢٨٥هـ / ٨٩٨م أثناء ولاية بنى الأغلب على صقلية. مما دفع والي الأغلب إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب إلى أن يبعث كتبه إلى أهل صقلية يدعوهم فيها للرجوع إلى الطاعة ويؤمنهم أجمعين.

وتلك الفتن التي قامت بين العرب والبربر استغلت من قبل الفاطميين بعد خضوع الجزيرة لحكمهم. ذلك أنهم كانوا يحرضون البربر على العرب الذين لم يستجيبوا للولاية الفاطمية في الجزيرة، وما يذكر أنه إذا كان العرب الذين قدموا إلى صقلية، وفدوا إليها من كافة أرجاء الدولة الإسلامية؛ إلا أن عرب إفريقية كانوا هم الأكثر عدداً، بحكم الارتباط السياسي بين إفريقية وصقلية؛ ونظراً لقرب صقلية من إفريقية. يقول القزويني عن جزيرة صقلية: «وكانت قليلة العمارة خاملة الذكر، إلى أن فتح المسلمون بلاد إفريقية، فهرب أهل إفريقية إليها، وعمروها، حتى فتحت في أيام بنى الأغلب في ولاية المأمون».

تصوير سقف كنيسة بلاتينا في باليرمو - رجل يشرب النرجيلة - أسلوب فاطمي





## ٢- البربر :

كان للبربر دور كبير فى تاريخ صقلية، وذلك بدعمهم للحكم الفاطمى بها وخاصة قبيلة كتامة البربرية، التى يتسبب إليها "الحسن بن محمد بن أبى خنزير" الذى بعثه الخليفة الفاطمى إلى صقلية ليدعم نفوذ الفاطميين بها. وكذلك نجد أن أبا سعيد الضيف أرسل على رأس جيش إلى صقلية فى سنة ٣٠٤هـ / ١٠١٢م، وضم ذلك الجيش عدداً كبيراً من رجال كتامة البربرية.

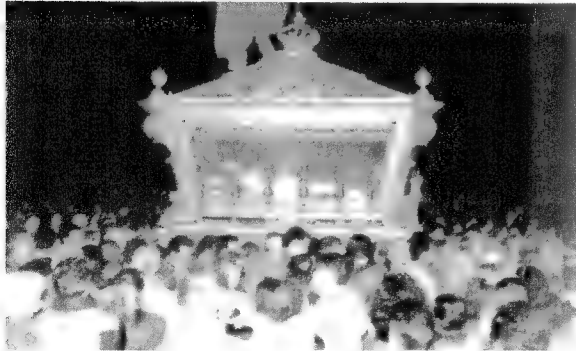
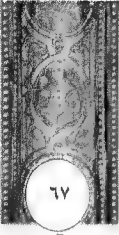
ومن القبائل البربرية التى سكن بعض أفرادها صقلية ؛ من يتسبب إلى اللواتى والقرقودى، والمكلاتى. وكذلك الزنانى. كما كان من تلك القبائل أيضاً التى يتسبب بعض من سكن صقلية من البربر إليها، قبيلة أندره، وقبيلة مزيزه ومليله.

وقد عاش البربر فى صقلية مع العرب، وتمركزوا فى مناطق خاصة بهم تحمل مسميات بربرية. وكانت قبيلة كتامة البربرية هى أهم قبائل البربر، وكانت ذات حظوة كبيرة لدى الفاطميين فى صقلية، حيث استخدمت لقطع ثورات العرب، وتحقيق أهداف سياسة الفاطميين فى صقلية.

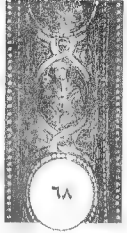
## ٣- الفرس :

يعود نسب فاتح صقلية القاضى أسد بن الفرات إلى أصل فارسى، فهو من أهل نيسابور. ولذلك فإن الفتح الإسلامى لجزيرة صقلية، جلب إليها عدداً كبيراً من الفرس. كما أن بنى الطبرى والذين هم من أعيان مدينة بلرم، تشير نسبتهم إلى أنهم من طبرستان. وقامت فى صقلية ثورة آل الطبرى، الذين هم من أعيان الجماعة، وقد قضى على ثورتهم أول أمراء الأسرة الكلبية على صقلية.

احتفال مسيحي  
أرثوذكس فى صقلية  
حيث مازالت تقوم  
الاحتفالات الدينية



#### ٤- الرقيق :



يقول الأصبغى عن صقلية أنها كثيرة الرقيق. «وكان لدى حكام وأمرأء- حتى أنه نجد بعد سقوط صقلية فى أيدي النورمان كان لدى الحاكم النورماندى غليام- جوارى وغلماانا من المسلمين»، كما أشار إلى ذلك الرحالة ابن جبير.

ونجد أن من الموالى فى صقلية من نال مركزاً رفيعاً «كعيش مولى الحسن بن على الكلبي»، والذى تولى إمارة صقلية بعد مولاة وكذلك جوهر الصقلى الكاتب، والذى أصبح قائداً لجيوش المعز لدين الله الفاطمى، وفتح مصر لفاطميين سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م وبني مدينة القاهرة.

ولقد كثر عدد العبيد فى صقلية، حتى أصبحوا يمثلون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الصقلى، وزاد عددهم نتيجة للأسر والسبى والشراء ؛ وقد هيا لهم الفتح الإسلامى للجزيرة حرفة جديدة تدر عليهم دخلاً معقولاً، إذ دخلوا فى صفوف الجيش، إلا أن الجيش شقى بهم فيما بعد، حتى أصبحوا عنصراً خطراً قابلاً للثورة. فقد اتحد العبيد مع البربر ضد أمير صقلية جعفر بن يوسف بن عبد الله الكلبي مما اضطره إلى نفى البربر، وقتل العبيد.

وكان يجلب إلى صقلية العبيد الصقالبة. وهم الممالك البيض، الذين كانوا يجلبون وهم صغار السن، ويؤتى بهم من بلاد السلاف على ضفاف نهر الألب عبر ألمانيا وفرنسا. وذلك بواسطة التجار اليهود بشكل خاص، وكان لهم مكان يباعون فيه يعرف بالنخاسة. وفى مدينة بلرم حارة تعرف بحارة الصقالبة. وكان لهؤلاء الفتيان نفوذ عظيم فى عهد الأمرأء الكلبيين، والملوك النورمندين، لأنهم أعوانهم ويطانتهم.

وكان للعبيد نظام فى صقلية، حيث تسجل أسماؤهم فى سجلات ملحقة بشئون الأرض يوضح فيها الإقطاعيات، وعدد الأرقاء فيها، كل ذلك فى ديوان عرف باسم ديوان «التحقيق المعمور». وله رئيس وكتاب.

#### ٥- وفى صقلية من السكان المسلمين من كان ينتسب إلى المكان، أو المهنة:

حيث نجد أن هناك من كان ينتسب إلى مدن صقلية، أو مدن فى بلاد إسلامية أخرى، أو ينتسب إلى ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، فمن ذلك مثالنجد : المكي كعمر بن خلف المكى. والمصرى كعلى بن جعفر بن القطاع الصقلى، ثم المصرى. ونجد كذلك القيروانى، والسوسى والشامى والطرابلسى، والمغربى، والقابسى، والغافقى، والحجارى. وغير ذلك.



ومن أهل صقلية، من كان ينتسب إلى الحرفة أو الوظيفة التي يقوم بها، فوجد مثلاً من يطلق عليه الوزير، والقاضي، والوثاقى والغضائرى، والخراز، والصباغ، والكتانى. وهناك من كان ينتسب إلى المذهب كأن يقال المالكى كمحمد بن أبى الفرج المالكى.

## ٦- النصارى :

بعد أن دخل المسلمون إلى صقلية، نجد أن بعض النصارى قد دخل فى الإسلام، وبعضهم بقى على دينه، وقبل بدفع الجزية، وهناك بعض المدن تم عقد معاهدات بين أهلها والمسلمين تقضى بعدم الاعتداء من الطرفين، على أن يدفع النصارى مالا عرف بمال الهدنة. وقد ترك المسلمون للنصارى حريتهم الدينية.

## ٧- اليهود :

كان بصقلية قليل من اليهود قبل الفتح الإسلامى. وبعد الفتح الإسلامى تخلص اليهود من سيطرة القسطنطينية وضرائبها الباهظة. وكانوا يعملون بتجارة الرقيق، كما كان لهم حارة فى مدينة بلرم تعرف بحارة اليهود، كما كان اليهود يتكلمون بالعبرية، إلا أن بعضهم كان يتكلم العربية أيضاً.

وأخيراً نشير إلى وجود جيل نشأ نتيجة للزواج بين طوائف سكان صقلية، وهو ماأشار إليه أمير صقلية أحمد بن يوسف الكلبى المعروف بالأكسل، والذى دعا فيه أهل صقلية إلى الاجتماع ضد أهل إفريقية، فردوا عليه قائلين : «قد صاهرنا وصرنا شيئاً واحداً» والتصاهر كان فى الغالب بين المسلمين، إلا أن بعض المسلمين قد تزوج من نصرانيات، ومثل هذا الزواج قد وقع بصقلية، وكان يعقد على شروط لم يسمح بمثلها فى ديار المسلمين، وقد تضايق ابن حوقل من هذا الزواج ومن شروطه فقال على سبيل الاستهجان : " المشعمدون - أى المشعوذون - أكثر أهل حصونهم وباديتهم وضياعهم، رأيهم التزوج إلى النصارى، على أن ما كان بينهم من ولد ألحق بأبيه من المشعوذين، وما كانت من أنثى فنصرانية مع أمها". ويعلق مارتينو على قول ابن حوقل السابق فيقول : «إذا هذه النصرانية المذكورة عند ابن حوقل إذا تزوجت من مسيحي، ستلد له أولاداً، ربيع دمائهم عربى، أو بربرى، وإذا كان من بينهم بنت واقرنت بمسلم تكررت الحكاية، وهلم جرا، إلى تبادل دماء متواتر، لا يزال بادى الأثر فى ملامح كثير من الصقليين»، واستمر ذلك الزواج بين المسلمين والنصرانيات حتى بعد سقوط صقلية، فوجد أنه : «فى زمن النورمان حدث تزواج بين المسيحيين والمسلمين بصقلية، مما أوجد جيلاً جديداً حمل اسم «بولانى» وامتاز هذا الجيل بأنه كان يعرف لغات مختلفة مثل العربية، والفرنسية، والإيطالية.

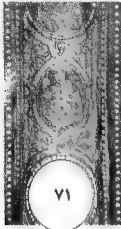
## الحياة الدينية في صقلية

فيما يتعلق بالمذاهب التي سادت في صقلية بعد الفتح الإسلامي، فإنه لا بد لمعرفة ذلك من الإشارة إلى الفقهاء الذين دخلوا صقلية، ومبولوجهم المذهبية، حتى نصل إلى ما كان عليه الحال بالنسبة للمذاهب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن دراسة أولئك الفقهاء العملية تكون منصبة في الغالب على المذهب الذي يتبعونه، ومن أولئك الفقهاء الذين دخلوا صقلية القائد الفاتح أسد بن الفرات، وهو يعد من أعلام المذهب المالكي، فقد قدم إلى القيروان في غرة سنة ١٤٤هـ / ٦١٧م، ثم ارتحل إلى تونس وبها التقى بالفقيه على بن زياد التونسي، وسمع منه موطأ الإمام مالك، كما أنه رحل إلى المشرق والتقى بالإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وتعلم على يديه، وسمع منه كتابه المشهور بالموطأ. ولم يقتصر أسد بن الفرات على معرفة المذهب المالكي، بل تفقه في العراق على أصحاب الإمام أبي حنيفة كأبي يوسف القاضي، وأسد بن عمرو ومحمد بن الحسن.

كما ألف أسد بن الفرات كتابه «الأسدية» بعد أن التقى في مصر بعبد الرحمن بن القاسم، يسأله في كل يوم مسألة، ويجيبه ابن القاسم حتى دون ستين كتابا عرفت «بالأسدية» حيث قدم بها إلى القيروان، وسمعها منه الناس إلى جانب «الموطأ».

وبناء على ذلك فقد كان فاتح صقلية عالما بالمذهبين المالكي، والحنفي، إلا أن المذهب المالكي كان هو الغالب عليه، وذلك لاعتبارات منها، أنه تلقى عن إمام المذهب مباشرة، كذلك كتب كتابه «الأسدية» في المذهب المالكي، الذي هو عبارة عن أجوبة تلقاها من أحد أهم أعلام المذهب المالكي وصاحب المدونة في الفقه عبد الرحمن بن القاسم.

وعندما اتجه القائد الفاتح أسد بن الفرات إلى صقلية، صحب معه عند خروجه عددا كبيرا من العلماء والعباد، والمشاهير، وأعيان الناس، وخطب فيهم خطبة مشهورة، ركز فيها على أهمية طلب العلم وتدوينه والصبر عليه، والمثابرة، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر الناس ما ولي لى أب ولا أحد قط ولاية، ولا أرى أحدا سيلقى مثل هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام فأجهدوا أنفسكم في طلب العلم، وتدوينه، وثابروا عليه، واصبروا على شدته فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة».



والمذاهب الفقهية دخلت إلى صقلية بدخول الفقيه القائد أسد بن الفرات. فقد تعاطف الصقليون مع المذهب المالكي، وزاد ذلك التعاطف والتأثير بدخول عدد كبير من أتباع سحنون إلى صقلية، حاملين معهم لواء المذهب المالكي، ومن هؤلاء عبد الله بن حمدون، أو حمدويه الكلبي، وهو ممن سمع من سحنون، ودخل صقلية، فكان من أوائل فقهاءها، وظل بها إلى أن توفي سنة ٣٧٠هـ / ٨٨٣م.

ومنهم محمد بن نصر بن حنظل، الذي وصف بأنه من فقهاء القيروان، وأنه كان كثير الاجتهاد، وذو جدل وحجة، وكان سحنون يجعله، ويصله، ويبقى في صقلية إلى أن توفي.

ومن فقهاء المالكية الذين دخلوا صقلية أيضا عبد الله بن سهل المتوفى سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م، فقد كان عالما بالمذهب المالكي، حيث سمع من سحنون، ومن غيره من أهل القيروان، : كما أنه سمع من أسد بن الفرات، وتولى قضاء صقلية بعد أن تولى قضاء طليطلة.

كما تولى أبو الربيع سليمان بن سالم القطان - والذي يعرف بابن الكحالة المتوفى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م - قضاء صقلية، وهو من أصحاب سحنون، وكان ابن الكحالة ممن وفد على المدينة وحدث عن محمد بن مالك بن أنس. كما كان ابن الكحالة كثير الكتب والتأليف، وله تأليف على قضاء صقلية في سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م، والتي ظل قاضيا عليها إلى أن توفي، وكان قبل ذلك قاضيا على باجة، ومتوليا لمظالم القيروان.

وعن الدور الذي قام به ابن الكحالة في صقلية قال الشيرازي : «وعنه انتشر مذهب مالك بها» كما نشر بصقلية علما كثيرا وأصبح كتابه «السليمانية» مجالا للاستشهاد به عند فقهاء صقلية وخاصة عند فقيه صقلية عبد الحق الصقلي.

ومن تولى قضاء صقلية من الفقهاء المالكية دعامة بن محمد الفقيه المتوفى سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، وهو من أصحاب سحنون. ومن أخذ عنه.

والفقيه المالكي محمد بن محمد بن خالد القيسي الذي عينه الأمير الأغلب زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٠-٢٩٦هـ / ٩٠٣ - ٩٠٨م) قاضيا عليها، واستمر لمدة عشرين سنة. وهو ممن سمع من محمد بن سحنون، كما سبق وإن تولى مظالم القيروان. وأبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب الإفريقي المتوفى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م (وقيل سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م)، وهو من تلامذة سحنون وآخر من روى عنه بالمغرب وعن أبي مصعب الزهري، وقد وصف بأنه كان رجلا، صالحا، زاهدا، وبلغ به زهده أنه عندما خرج لقضاء صقلية، حمل معه كتبه، وخادمته، ولم ينزل في دار القضاء.



وقد استقر أحد فقهاء المالكية بصقلية وهو أبو سعيد لقمان بن يوسف الغساني المتوفى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م وقبل ٣١٩هـ / ٩٣١م، قام بتدريس المدونة في الفقه المالكي لمدة أربع عشرة سنة، وقد وصف بأنه كان حافظا لمذهب مالك حسن القريحة فيه، وأنه كان عالما باثنى عشر صنفا من العلوم.

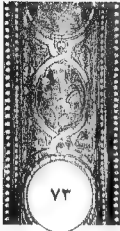
كذلك كان من فقهاء المذهب المالكي الذين تولوا القضاء بصقلية، وكان لهم دور في نشر المذهب المالكي بها محمد بن إبراهيم بن أبى صبيح المتوفى بسوسة سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وهو فقيه درس المذهب المالكي على أصحاب سحنون، ووصف بأنه كان رجلا فاضلا زاهدا.

وكان لاستقرار أحد شيوخ المالكية وفقهائها بصقلية، دوره البارز في نشر المذهب المالكي بها وتأليفه لكتبه فيها، وهو كتب أصبح لها مكانة في صقلية، حيث شرحت واختصرت، وهذبت وألف على منوالها، وعلق عليها، وذلك هو أبو سعيد خلق بن أبى القاسم الأزدي القيرواني المالكي، المعروف بالبرادعي، المتوفى بصقلية بعد سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م.

ويذكر الزبيدي عن تلك المناظرات التي جرت بين ابن الحداد وفقهاء الشيعة، أنها جمعت في كتاب اسمه «المجالس» حيث أملاها ابن الحداد على أصحابه. فقال: «وكان لسعيد بن محمد بالقيروان في أول دخول الشيعة مقامات محمودة، ناضل فيها عن الدين وذبح عن السنن، حتى مثله أهل القيروان في حال تلك بأحمد بن حنبل أيام المحنة».

وقد استمر العداء بين الفقهاء المالكية والفاطمية إلى أن أعلن «المعز بن باديس» حمل الناس على الالتزام بمذهب الإمام مالك، وحسم مادة الخلاف في المذهب، كما سبق وأن أشرت إلى ذلك. والصراع بين أهل السنة والرافضة مستمر سواء في المشرق الإسلامي أو في غربه، إلا أن ابن تغري بردي يذكر أنه في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥٠م حصل صلح بين أهل السنة والرافضة، ثم يذكر أنه في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م عادت الفتنة بين أهل السنة والرافضة في المشرق الإسلامي. هذا بالنسبة للصراع في الشرق، وأما في المغرب، فلم تخل سنة من السنوات السابقة لهذا التاريخ من صراع بين السنة والشيعة.

وتزداد مكانة البرادعي العلمية إذا علمنا أنه من كبار أصحاب من تسميه المصادر بـ«مالك الصغير» ابن أبى زيد، وكذلك من أصحاب أبى الحسن القابسي، ويعتبر ابن أبى زيد وأبو الحسن القابسي من حفاظ المذهب المالكي المؤلفين فيه، أما عن استقرار البرادعي بصقلية، فقد ذكرت المصادر أنه أخرج من القيروان لأنه كان يميل إلى بني عبيد كما أنه ألف كتابا في نسب بني عبيد، وبذلك وصلت إليه هداياهم تكريما له. وفي صقلية اشتهر البرادعي، وحصلت له صحبة عند أمرائها، واشتهرت كتبه بها.



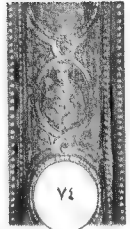
وقد كانت صقلية وقتذاك فاطمية التبعية، وكان الولاة الفاطميون فى صقلية يؤوون الفقهاء الذى يميلون إلى بنى عبيد، أو الذين لا يقفون منهم موقف المتشددين، وحسن استقبالهم للبرادعى دليل واضح على ترحيب البلاط الصقلى بمن كان يسالم المذهب الشيعى والسياسة الفاطمية، وقد ألف البرادعى كتبه فى صقلية برعاية أمرائها، ومن كتبه تلك كتاب «الشرح والتسامات» وكتاب «اختصار الواضحة» لمؤلفه عبد الملك بن حبيب السلمى. وكتاب «تمهيد مسائل المدونة».

ومن فقهاء المالكية الذين وفدوا على صقلية، وألفوا فيها بعض كتبهم يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسى. المتوفى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م، وقد ألف كتابا فى المذهب المالكى بصقلية، وكان كتابه هذا متشرا فى صقلية، كانتشاره فى أفريقيا.

وبعد هذا الاستعراض لبعض الفقهاء الذين وفدوا على جزيرة صقلية سواء على أيام الأغالبة أو الفاطميين - يمكن تتبع التطور المذهبى فى جزيرة صقلية، فنقول : إن صقلية دخلت فى مذهب أهل السنة والجماعة ممثلا فى المذهب المالكى، وذلك لعدة أسباب منها أن أغلب الفقهاء الذى دخلوا صقلية مع الجيش الفاتح وبعده وطيلة فترة الأغالبة، بل وحتى زمن الفاطميين، كانوا ممن ينتمون إلى المذهب المالكى، ما يتضح من خلال متابعة خروج الفقهاء والقضاة إلى صقلية، وانتشار مؤلفاتهم فيها، وفى ذلك يقول القاضى عياض : «إن مذهب مالك قد غلب على الحجاز، والبصرة ومصر وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس وصقلية، والمغرب الأقصى إلى بلاد السودان إلى وقتنا هذا» وإذا علمنا أن القاضى عياض قد توفى فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، فمعنى ذلك أن المذهب الذى كانت له السيادة فى جزيرة صقلية كان هو المذهب المالكى، وأن ذلك استمر فترة الوجود الإسلامى فى جزيرة صقلية فى عصر الأغالبة، والفاطميين، بل وحتى بين من بقى من المسلمين فى صقلية فى العصر النورماندى.

إلا أن نشاط المذهب المالكى انحسر فترة من الزمن، ولكنه لم يختلف وخاصة فى عصر سيادة الفاطميين على صقلية. ويذكر- المقدسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى - «أن أغلب أهل صقلية حنفيون» وهذا التاريخ الذى عاش فيه المقدسى، كان فترة السيطرة الفاطمية على صقلية، التى بدأت بنهاية القرن الثالث الهجرى.

وقبل أن نحاول التوفيق بين قولى القاضى عياض والمقدسى فإننا نشير إلى أن إفريقية قامت بالدور الرئيسى فى التأثير المذهبى على صقلية. وقد اتضح سابقا أن الأغالبة كانوا يميلون إلى مذهب الأحناف، ثم أخذ جماعة من درسوا مذهب الإمام مالك يحاولون نشره، ولكن هذا



المذهب، لم يستطع أن يسيطر نفوذه على إفريقية إلا أيام أسد بن الفرات، وسحنون اللذان استمدا ثقافتها الفقهية من المشرق، على الرغم من محاولة حكام الدولة الأغلبية وقف نشاطه، وزيادة ظهور المذهب الحنفي.

ويعكس وجود المذهب الحنفي في صقلية - كما أشار المقدسي - انحسار المذهب المالكي في عهد الفاطميين. وبروز فئة قليلة من فقهاء وأتباع المذهب الحنفي، فيقول إحسان عباس: إن مذهب الإمام مالك أخذ في الانتشار في صقلية قبل انتهاء القرن الثالث الهجري، وإذا عرفنا أن المقدسي قد كتب كتابه بعد قيام الدعوة الفاطمية، قدرنا أن يكون المذهب المالكي، قد انهزم أمام هذه الدعوة، كما انهزم في إفريقية، ولكن لم يقبل الناس على مذهب أبي حنيفة، ولا يأخذون بالمذهب الفاطمي، وربما كان في صقلية أقلية من أتباع أبي حنيفة، فلما هزم المذهب المالكي، وربما لجأ المالكيون إلى مذهب أبي حنيفة فرارا من ترك السنة، لأن بني عبيد كانوا متسامحين مع الأحناف متشددين مع المالكية. فهذا النص السابق يفسر لنا الخلاف بين قولي القاضي عياض، والمقدسي.

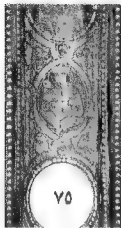
ولكن الواضح من الأحداث التاريخية، ومن خلال تراجع أعلام صقلية، أنهم كانوا يعتمدون مذهب الإمام مالك، ويؤيد ذلك أن أسد بن الفرات، فاتح صقلية، كانت إجابته على سؤال من سأل أي مذهب يعتمد؟ فقال: «إن أردت الله والدار الآخرة فليكن بقول مالك». أما فيما يتعلق بالمذهب الشافعي في صقلية، فلم يكن معروفا، كما هو الحال في إفريقية.

ثم إن مقاومة الفقهاء وأتباعهم من معتنقي المذاهب السنية، للمذهب الشيعي بعد سيطرة الفاطميين على صقلية، لم تتوقف، حتى انتهى الأمر بصقلية إلى نبد التشيع من جزيرة صقلية، وقد أكد ابن جبير ذلك عندما رار صقلية في فترة الحكم النورماندي قائلا: «يصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي».

وبعد سيطرة الفاطميين على صقلية انتهجوا سياسة تجعل ولائهم على صقلية من أنصار مذهبهم الإسماعيلي.

وقد اعتمد عبيد الله المهدي لنفسه سياسة الاعتماد على الكتائمين، - أنصار المذهب الإسماعيلي - فأرسل الحسن بن أبي خنزير واليا على صقلية (٢٧-٢٩٩هـ / ٩٠٩-٩١١م) وهو أحد أفراد قبيلة كتامة البربرية، ولكن أهل صقلية، لم يقبلوا بسهولة ذلك التغير المذهبي، فثاروا ضد ولائهم من قبل الفاطميين، كما أن أهل صقلية عز عليهم أن تقطع الخطبة للخليفة العباسي في المشرق الإسلامي. ويدعى فيها للخليفة الفاطمي وعندما تولى علي بن عمر البلوي إمارة صقلية (٢٩٩-٣٠٠هـ / ٩١١-٩١٢م) لم يرض به أهل صقلية وثاروا ضده، وعينوا على أنفسهم «أحمد بن قهرّب»، الذي أعلن الخروج عن طاعة المهدي وأعلن طاعة الخليفة العباسي المقتدر،





وخطب له بصقلية . ومن الأمور التي عمد إليها الفاطميون لمحاولة إزاحة المذهب السني في صقلية ، تعيين قضاة يدينون بالمذهب الإسماعيلي ، من ذلك ما قام به عبيد الله المهدي من عزل القضاة المالكية بصقلية ، وتعيين أحد الزعماء الكتامين ، قاضيا على صقلية وهو إسحاق بن أبي المنهال .

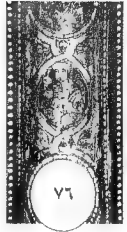
كما أرسل أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام من القاهرة الفاطمية قاضيا على صقلية وذلك في سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م حيث منح سجلا بذلك من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي ( ٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م ) .

ومما يدل على استمرار محاولة الفاطميين لنشر المذهب الشيعي في صقلية ، أنه بعد تولي أحمد بن الحسن بن علي الكلبى إمارة صقلية ( ٣٤١-٣٥٩هـ / ٩٥٢-٩٦٩م ) بعد أبيه ، أخذ معه مجموعة من وجوه الجزيرة ، وذهب بهم إلى المعز لدين الله الفاطمي ( ٣٤١-٣٦٥هـ / ٩٥٢-٩٧٥م ) فبايعوا المعز ، وخلع عليهم الخلع ، ثم عادوا إلى صقلية ، بعد أن دخلوا في المذهب الإسماعيلي .

وقد حاول الفاطميون استغلال بعض المظاهر الاجتماعية للتقريب بين أهل السنة والشيعية في صقلية واستمالة أهلها لمناصرة الفاطميين وولاتهم ، من ذلك أن المعز لدين الله الفاطمي ، قد كتب كتابا إلى واليه على صقلية أحمد بن الحسن بن علي الكلبى ، يأمره فيه أن يقوم بإحصاء أطفال جزيرة صقلية وأن يختنهم ويكسوهم في اليوم الذي يظهر فيه المعز ولده ؛ ونفذ أمير صقلية ذلك

سور القاهرة الفاطمية وجانب من باب الوزير ومثانة مسجد الحاكم





فختن خمسة عشر ألف طفل، وتم توزيع مائة ألف درهم، وخمسين حملا من الصلات عليهم وخطب للخليفة الفاطمي على منابر صقلية، وبذلك أصبح الوالي الصقلي ممثلا للخليفة الفاطمي.

وكان المذهب الإسماعيلي شائعا بين الفرق الدينية الأخرى في عهد الفاطميين باستثناء المذاهب السنية، كما كان الفاطميون يحاربون المذاهب والفرق الأخرى، كالمعتزلة، والمرجئة، يقول ابن حوقل: «إن أهل صقلية يكرهون المرجئة، ويكفرون المعتزلة» وذلك لأن أهل العراق يدعون مرجئة، وإنما سموا بذلك لتركهم القطع على أهل الكباير بالخلود.

وقد استمال الفاطميون إليهم من الفقهاء من كان يقف في صفهم كما هو الحال بالنسبة للبرادعي، حيث دخل صقلية بعد أن امتدح ولاتها، والخلفاء الفاطميين، كما أنه ألف كتابا في نسب بني عبيد مما جعلهم يهتمون به ويكرمونه فما كان منه إلا أن ألف كتبه في صقلية تحت رعاية أمراءها من قبل الدولة الفاطمية. وكانت الأوضاع الدينية في جزيرة صقلية تتأثر بالأحداث السياسية التي مرت بها الجزيرة. ففي فترة الأغلبية سيطر المالكية بمذهبهم على صقلية. على الرغم من موالة الأمراء الأغلبية للأحناف. ثم انحسر المذهب المالكي في ظل السيادة الفاطمية على صقلية، ولكنه لم يخف تماما بل دليل أننا رأينا أن هناك قضاة مالكية تولوا قضاء صقلية في العهد الفاطمي.

وإذا كان المذهب الإسماعيلي قد برز في فترة من الزمن في صقلية فإنه سرعان ما اختفى بفعل مقاومة الفقهاء والعلماء له بصقلية حتى عاد للمذهب المالكي سيطرته. فما إن حل منتصف القرن الخامس الهجري حتى كان المذهب المالكي هو المسيطر وتزعمه شيوخ المذهب كالسمنطاري وابن يونس؛ ولذلك كله نجد أن أغلب الدراسات الشرعية بصفة عامة، والفقهية بصفة خاصة تركزت على دراسة المذهب المالكي، والتأليف فيه، وشرح مصادره، والتعليق عليها، واختصارها وخلاف ذلك. أما فيما يتعلق بالديانات الأخرى في صقلية فالمعروف أن صقلية كان بها طائفة من النصارى واليهود.

فبالنسبة للنصارى، كان منهم في صقلية طائفة كبيرة يدينون بالمسيحية. ولما فتح المسلمون صقلية تركوا لأهلها عاداتهم وقوانينهم وحرثتهم الدينية المطلقة، واكتفوا منهم بجباية قليلة أعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد، كما تركوا لهم كنائسهم القائمة، إلا أنهم لم يسمحوا لهم ببناء كنائس جديدة. على خلاف ما كان عليه الحال في الأندلس، على أن بعض النصارى في صقلية قد دخل في الإسلام، كما كان اليهود يزاولون عبادتهم بحرية تامة مثلهم في ذلك مثل النصارى دون أن يسمح لهم ببناء معابد جديدة.



## الحياة العلمية في صقلية الإسلامية

### المؤسسات العلمية

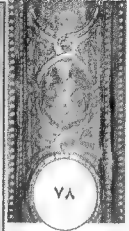
#### ١- الكتاب :

يعتبر الكتاب من أهم المؤسسات العلمية الإسلامية ، وكان الذين يتولون التعليم في المكاتب يطلق عليهم اسم المعلمين، أو المكتبيين . كما كان الآباء يدفعون بأبنائهم إلى المكتب منذ الصغر في الخامسة أو السادسة وبعضهم كان في السابعة والثامنة . وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي : «إن التربية الدينية يجب أن تبدأ في سن مبكرة؛ ذلك لأن الصبي في هذه السن يكون مستعدا لقبول العقائد الدينية والإيمان بها دون أن يطلب عليها دليلا» كما أشار إلى «أن الصبي لا بد وأن يتعلم في الكتابات القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم، وبعض الأحكام الدينية والشعر» .

وصقلية الإسلامية ليست إلا واحدة من البلدان الإسلامية، التي لا تكاد تختلف فيها طريقة التعليم كثيرا عن غيرها من البلاد الإسلامية سواء في غرب العالم الإسلامي أو شرقه، فقد وجدت الكتابات في صقلية، وقامت بدورها في تعليم الناشئة من أبناء صقلية . - ومن هاجر إليهم من المسلمين . فهذا ابن حوقل يشير إلى كثرة المكاتب بصقلية فيقول : «والمكاتب بها في كل مكان» .

ولقد رأى ابن حوقل ذلك بنفسه عندما زار صقلية، وأبدى استغرابه من كثرة المعلمين والكتاتيب، كما أبدى تحاملا كبيرا على معلمى صقلية، فذكر : «أن الغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان، وهم فيه على طبقات مختلفة ومنازل شتى» .

ولقد كثر المعلمون في المكتب الواحد في صقلية، وهى تمثل صورة راقية من صور التعليم في صقلية، فأحد الكتاتيب بها لم يقتصر العمل فيه على معلم واحد بل كان فيه خمسة معلمين،



خريطة شرق  
أوروبا وغرب  
آسيا- ابن حوقل

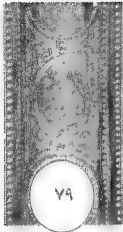
ولهم من بينهم مدير الكتاب، وهذا أمر له دلالة في اهتمام الصقليين بتعليم الناشئة، وهذا يفسر أن طلاب المكتب لابد وأن يكونوا كثيرى العدد، وإلا لما احتاج الأمر إلى خمسة معلمين، ويرأسهم أحدهم.

كما أن ذلك يعكس صورة عن التنظيم الإدارى للكتاتيب فى صقلية آنذاك، حيث وجد مسئول يرأس الكتاب، مما سيضفى على العملية التعليمية والتربوية بعدا تنظيميا، يتعكس على التحصيل العلمى والثقافى لمرتادى تلك الكتاتيب.

على أن الصورة السابقة لم تعجب ابن حوقل، إذ تضايق من ذلك الوضع مبدئيا استغرابه ودهشته من وجود خمسة معلمين فى مكتب واحد. فقال: «ومن أغرب ما رأيته بصقلية خمسة معلمين فى مكتب واحد، يعلمون فيه الصبيان، شركاء متشاكسون على باب عين شفاء، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط».

وتدل كثرة المعلمين والكتاب (جمع كاتب) فى صقلية على نشاط تعليمى واسع، قال ياقوت عن مدينة بلرم: «والغالب على أهل المدينة المعلمون فكان فى بلرم ثلاثمائة معلم».

وقد أشار ابن حوقل إلى أن تلاميذ المكتب كثيرون، وقد ذكرت إحدى الروايات إلى أن عدد الطلبة كان يصل أحيانا إلى ثمانين طالبا فى الحلقة الواحدة، وأن هذا العدد كان يضم طلبة من بلدان مختلفة.



وفى هذه المكاتب، كان الصقلي يتلقى علومه الأولى، ثم ينتقل إلى حلقات الشيوخ، فإذا أراد أن يسافر إلى المشرق أو غيره كان له ذلك حيث يلتقى بعلماء البلاد الإسلامية، ويدرس على يد أساتذة مشهورين، ثم يعود وقد حمل إجازات كثيرة. أو قد يكاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل إليهم.

أما عن أماكن الكتاتيب فى صقلية، فهى إما أن تكون فى بيوت المعلمين، أو المكتبيين، وقد تكون فى المساجد: فقد ذكر ابن حوقل - عند حديثه عن المساجد فى صقلية - ما يشير إلى أن بها كتاتيب. حيث قال بعد أن ذكر أن الأب الصقلي قد يكون له مسجد خاص به والابن له مسجد خاص، وليس بينهما سوى أربعين خطوة «وفى هذه الأربعين خطوة التى ذكرت بين مسجده ومسجد أبيه مسجد آخر معلق له أمان وبه مكتب».

وذكر الرحالة ابن جبير ما يفيد بأن أكثر المساجد فى صقلية، كانت «محاضر لمعلمى القرآن» ولعله بذلك يشير إلى المرحلة الثانية من مراحل التعليم فى الكتاتيب، وهى تعليم القرآن وبعض العلوم الدينية.

أما فيما يتعلق بطريقة التعليم فى الكتاب، فتكاد تكون واحدة فى كافة البلدان الإسلامية، وذلك نظراً لوحدة الهدف الذى أنشئت من أجله، التلخيص فى تعليم القراءة والكتابة، وتعليم القرآن وبعض العلوم الدينية، على أن طرق المعلمين والمؤدبين قد تختلف من شخص لآخر، إلا أنها فى كل الأحوال لن تخرج عن الإطار الذى حدده من كتب عن المعلمين وآدابهم وواجباتهم، والمحتسبين.

ومن الطبيعى أن تكون الأيام الأولى للطفل صعبة؛ لذلك كان على المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد.

وكان من العادة أن يذهب الطفل إلى الكتاب مبكراً، حيث يظل هناك إلى منتصف النهار ويعود الطفل إلى منزله للغداء والراحة قليلاً، ثم بعد ذلك يتجه إلى الكتاب مرة ثانية لى يبدأ الدراسة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فينصرف إلى منزله.

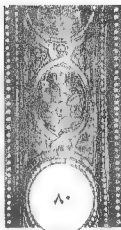
ويرتكز ذلك على ما أثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أمر أحد معلمى الصبيان بأن يلازمهم: «بعد صلاة الصبح إلى الضحى الأعلى، ثم من الظهر إلى صلاة العصر، ويسرحهم بقية النهار».

وكان من طرق التعليم فى الكتاتيب أن يقوم المعلم بقراءة آية من آيات القرآن الكريم، ثم يقوم بعض المعلمين بتعليم الأطفال السور القرآنية القصيرة أولاً؛ وعندما ينتقل الطفل من جزء،

كان عليه أن يقرأ على معلمه ما قد سبق وتعلمه، وهكذا يمضى الصبي من جزء إلى جزء.

كما كان معلم الكتاب مسئولاً عن تعليم الصبيان القراءة والكتابة، ولذلك كان على الأطفال أن يحملوا معهم ألواحهم ومحابرهم، وقد نص ابن سحنون أنه «ينبغي أن يجعل لهم وقتاً يعلمهم فيه الكتابة».

## ٢- المساجد:

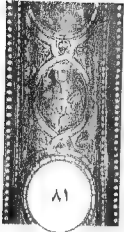


اشتهرت صقلية بكثرة المساجد، وقد سجل الرحالة ابن حوقل ما شاهده في صقلية عن كثرة مساجدها، وأبدى دهشته من تلك الكثرة فذكر أن: «بمدينة بلرم من المساجد والمدينة المعروفة بالخاصة والحارات المحيطة بها.. نيف وثلاثمائة مسجد.. وفي مدينة بلرم وحدها: ما يزيد على مائتي مسجد» ويضيف ابن حوقل أن ذلك العدد من المساجد لم يسمع عنه ببلد من البلدان لا ما ذكر عن أهل قرطبة، فإنه كان بها خمسمائة مسجد. فقال: «ولم أر مثل هذه العدة من مساجد بمكان، ولا بلد من البلدان الكبار، والتي تستولى على ضعف مساحتها شبيهاً، ولا سمعت به إلا ما يذكره أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته في موضعه على شك مني فيه؛ وأنا محققه بصقلية لأني شاهدت أكثره».

وكانت المساجد في صقلية قرية من بعضها البعض، وقد يختص أحدهم بمسجد له دون غيره، وقد يكون للأب مسجد، وللأبن مسجد، وذلك ما يدلنا عليه قول ابن حوقل: «ولقد كانت واقفا ذات يوم بها - أي بلرم - بجوار دار أبي محمد عبد الواحد بن محمد المعروف بالقفصى الفقيه الوثاقى، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصرى، ومنها شيء تجاه شيء، وبينهما عرض الطرق فقط... وربما كان أخوان منهم متلاصقة دارهما وقد عمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه لوحده، وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد يصلى فيه أبو محمد بن القفصى هذا، وبينه وبين دار ولد له دون الأربعين خطوة، وقد ابتنى ابنه مسجداً إلى جانب داره.. وفي هذه الأربعين خطوة التي ذكرت بين مسجده ومسجد أبيه مسجد آخر».

وكانت ظاهرة كثرة المساجد في البلاد الإسلامية، عملية ظاهرة صاحبت الفتوحات الإسلامية،

كذلك وصف الرحالة ابن جبير مدينة «باليرمو»، في جزيرة صقلية، وأشار إلى كثرة مساجدها، وأنه كانت تستخدم إلى جانب الصلاة أماكن لتعليم القرآن فيقول: «وللمسلمين بهذه المدينة أذان مسموع... وبها جامع يجتمعون للصلاة فيه... أما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن».



ومما أشار إليه ابن حوقل، وابن جبير عن المساجد في صقلية، وقيامها بالعملية التعليمية نستطيع أن نذكر أن المسلمين في صقلية كانوا يتناوبون على التعليم فيها. فقد نص ابن حوقل على ذلك بقوله: «يتواطأ أهل الخبرة منهم في عملها ويتساءلون في معرفتها وعددها».

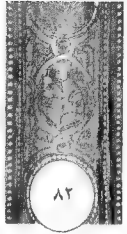
ويؤكد ذلك ابن جبير حيث يذكر أن تلك المساجد كانت تستخدم محاضرات لمعلمي القرآن. إذ المساجد في صقلية كانت تقوم بمهمتها التعليمية خير قيام ففيها يتلقى التلاميذ المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وذلك تمهيدا لقراءة وحفظ القرآن الكريم الذي يمثل أساس الثقافة الإسلامية.

وهذه الكثرة في المساجد والتي فسرناها ابن حوقل بأن كل واحد يريد مسجدا له، وذلك لانفتاح رؤوسهم، تدلنا بتفسير آخر على أن تعليم التلاميذ انتشر في المساجد مقابل مبلغ بسيط يدفعه التلميذ، وبذلك يعتبر التلاميذ طريقة للكسب،

كما يمكن القول أيضا أن التنافس الذي كان موجودا في صقلية في بناء المساجد كان له دور الكبير في انتشار التعليم في الجزيرة، وكثرة العلماء. وهذا يتفق مع ما أفادتنا به المصادر وكتب التراجم عن العدد الكبير لعلماء صقلية ومؤلفاتهم التي وصل بعضها إلينا، هذا فضلا عن بعض العلماء والمؤلفات التي لم تشر إليها المصادر. وابن حوقل عندما يشير إلى المساجد بصقلية يتحدث عن «اجنحتها وأبراجها فكأنه يذكر أن بها حدائق وبساتين، وأبراج وبناها تتكون من أكثر من طابق»، وإذا كان الكلام كذلك، فإن تلك المساجد كانت تغطي عليها بالدرجة الأولى الصبغة الحياتية على الصبغة الدينية.

فقد أشارت المصادر إلى أن التعليم في مرحلته الثانية في الجوامع كان يقوم على ثلاثة أسس **أولاهـا**: تعلم القرآن بعد حفظ القرآن الكريم، **وثانيها**: دراسة الفقه الذي يقوم على الأساسين السابقين، ويؤكد ذلك ما أورده أبو الطاهر السلفي في معجمه عند سؤاله لأحد علماء صقلية عن دراسته بالجزيرة فأجاب: «قرأت القرآن على أبي محمد عبد الله بن فرج الأزدي، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله القتال، وهؤلاء شيوخ المدينة بصقلية، والمقدمون في الإقراء، وسمعت الحديث على عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي، وعتيق بن علي بن داود السمنطاوي؛ وقرأت الفقه على محمد بن يونس، وأبي العباس أحمد بن محمد...».

**وثالثها**: ارتباط كثرة المساجد في صقلية بكثرة المعلمين والكتاتيب، وهذه الكثرة تشير بوضوح إلى ما كان يوجد من نشاط تعليمي كبير في صقلية، قال ابن حوقل: «والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان».



فيروى معلومهم أنهم كانوا: «يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم،  
والبابهم، وفقهاؤهم، ومصلوهم، وأرباب فتاويهم وعدولهم وبهم يقوم  
الحلال والحرام، وتعد الأحكام، وتنفذ الشهادات، وهم الأدباء والخطباء».

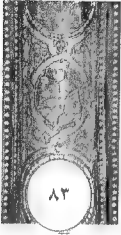
وقد رأى منهم ابن حوقل من يقوم ويخطب في الناس يوم الجمعة، كما  
وصف بعضهم بأنهم من أهل السير والعدالة، ورأى منهم القضاة، والفقهاء ؛  
وكانوا هم الذين يوجهون العامة في أمور الدين والدنيا، كما كانوا يتدخلون في  
الأمر السياسي، ولعل ذلك هو سبب تضايق ابن حوقل من معمل صقلية -  
خاصة إذا علمنا أنه زار صقلية في فترة التبعية الفاطمية - مما جعله يصب  
عليهم نقمته ويرميهم بكل رذيلة، ويدل على ذلك قوله فيهم: «حتى إنهم المتكلمون على السلطان  
في سيره واختياراته، والإطلاق بالقبايح من ألسنتهم بمعانيه، وإضافة محاسنه إلى قبايحه».

وبعد... فإن الكثرة في عدد المعلمين والمساجد والكتاتيب كانت دليلا على نشاط تعليمي  
واسع بجزيرة صقلية، وبصرف النظر عن الأسباب التي أدت إلى كثرة المساجد وكثرة المعلمين فقد  
كان المسجد يقوم بمهمة التعليم إلى جانب وظيفته الأساسية، و كان الصقلي يتعلم في حلقات  
الشيوخ في المساجد، ثم إذا أراد أن يغادر صقلية إلى أماكن أخرى كان له ذلك، والتقى بعدد من  
العلماء والشيوخ، وعاد وهو يحمل إجازات كثيرة، أو كاتب هؤلاء دون أن يرحل، واستجازهم  
كتبهم، أو زار البيت الحرام والتقى بالعلماء في مكة من المقيمين والمجاورين، أو مر على مصر  
وهو في طريقه إلى الحج والتقى بعلمائها وأدائها.

ولم تكن مهنة التعليم هربا من الجهاد كما ذكر ابن حوقل فهي لا تدر رزقا كثيرا على  
المشتغلين بها كما ذكر هو بأن أحدهم لا يصيب عشرة دنائير في السنة من تلاميذه. بل كان يزاو  
مهنة التدريس عدد كبير من أعيان البلاد وأنه كان يتخرج على أيديهم عامة الناس وكثير من أولاد  
السراة.

وفي مقابل ما ذكره ابن حوقل عن معلم صقلية، فإننا نذكر نصوصا مما ورد في كتاب  
«الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار» لمؤلفه عبد الرحمن بن محمد الصقلي، أحد علماء  
القرن الرابع الهجري. وتلك النصوص يظهر من خلالها احترام المعلمين والعلماء، وتدلنا على  
سمو التعليم وقدر علمائه وفضل مرتادى مجالسه، وما ينبغى أن يتصف به كل من العالم  
والمتعلم، وقد قدر علماء صقلية وتلاميذها وطلاب العلم فيها كل ذلك، فمن ذلك قوله: «لا  
يزال العبد جاهلا حتى يطلب العلم بالأدب، ولا يزال مدعيا بالعلم حتى يعمل به على الخوف  
والرجاء».





وقوله أيضا: «إذا حدث فى قلوب الجهال الغنى عن العلم أحدث الله فى قلوب العلماء الجفاء لهم» كما قال: «من ترك طلب العلم تحكمت فيه دواعى الجهل، ومن طلب العلم بغير أدب تحكمت فيه دواعى العجب» ومنه قوله: «إذا لم يكن المتعلم أرضى للمعلم قل نفعه بما تعلمه» ومن ظن أن العلم ينفعه دون العمل به فهو مفتون بالقوة، ومن استغنى برأيه دون شيوخه فهو هالك مستدرج فى حالتى العلم والجهل»، ويقول أيضا: «تكبر العلماء فتنة عامة، وتواضع العلماء رحمة خاصة».

ذلك أن المسلمين فى صقلية كانوا يهتمون بتنشئة أبنائهم وتثقيف

عقولهم، بدليل تلك الكثرة الهائلة من المساجد، والتي كان أهل الخبرة من علماء الجزيرة يتناوبون على تعليم الناس بها، مما يدل على كثرة العلماء أيضا وكثرة المتعلمين. كما أن القوم جميعا كانوا يعلمون تعدادها ويتساوون فى معرفتها، مما يدل على اهتمام المعلمين والمتعلمين بدور العلم فيه.

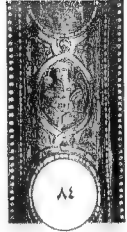
ثم يأتى ابن جبير، ويؤكد فى صراحة ووضوح أن تلك المساجد الكثيرة لا تخصى، كان أكثرها محاضر لمعلمى القرآن، وهكذا يبدو لنا كيف كانت تمتلئ المساجد بالتلاميذ المسلمين فى صقلية، لتلقى مبادئ القراءة والكتابة التى هى ضرورة لازمة لمن يتصدى لحفظ القرآن.

ويتضح أيضا من كلام ابن حوقل، أنه لم تكن هناك إدارة عامة تسيطر على هذه الأماكن التعليمية فى ذلك الوقت عدا ما ذكره عن الكتاتيب، وأن بأحدها خمسة معلمين يرأسهم أحدهم مما يشير إلى تنظيم إدارى كان موجودا بذلك المكتب. بل كانت أشبه بمدارس حرة يستطيع أصحابها عن طريقها التكسب، ولعل هذا هو السر الذى خفى على ابن حوقل عندما أدهشته الكثرة العددية بهذه المساجد.

كما تشير رواية ابن حوقل التاريخية، أنه استطاع - على قدر جهده وطاقته - أن يحصى أكثر من ثلاثمائة، معلم فى مدينة «بلرم»، كما أحصى المساجد بنيف وثلاثمائة فى حين أن ابن جبير - الذى أتى بعده بقرنين من الزمان - يذكر أن المساجد كانت كثيرة لا تحصى، وأنها كانت تستخدم كمحاضر لمعلمى القرآن؛ وقال ابن حوقل فى معرض حديثه عن «باليرمو» أنه رآه مسجدا القضاة بها، وأنه يتسع لسبعة آلاف رجل، إذا غص بأهله، يتسع لستة وثلاثين صفا فى الصلاة، كل صف منها لا يزيد على مائتى رجل».

### ٣- دور العلماء فى صقلية:

قامت دور العلماء فى صقلية الإسلامية بدورها فى تعليم الناس، وتفقيهم وإن كانت الإشارات فى المصادر إلى ذلك قليلة، فلم نجد نصوصا صريحة تدل على ذلك إلا ما ذكرته من أن



أبا عمرو ميمون بن عمرو قاضى صقلية، والمتوفى سنة ٢١٠هـ/ ٩٢٢م لم ينزل فى دار القضاء، واستقر فى منزله، وكانت خادمتة تغزل وتبيع غزلها وتطعمه، وكان الناس يأتون إليه فيقرعون عليه الباب، فيخرج إليهم ويقضى بينهم، واستمر حاله على ذلك سنين حتى خرج إلى القبروان وبها توفى. أما فيما يتعلق بقصور الحكام والأمراء، فقد كان فيها مجالس العلم والأدب، فهذا الأمير مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبي يدعو إلى مجلسه أصحاب المواهب والإبداع، وأصبح منزله عامرا بالأدباء.

#### ٤- دور الكتب:

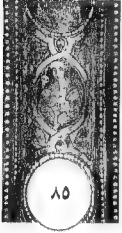
كانت دور الكتب فى صقلية موجودة بالجوامع والأربطة والمدارس، وأعظمها كان بقصر الأمير، فأهم مكتبة بصقلية هى مكتبة بنى الحسين بالقصر الكبير. كما كان بقصر الوالى ابن منكود مكتبة كبيرة بمدينة «مازرة» وكان هو نفسه أديبا. وفى العصر النورمندى اتخذ روجار مكتبة عربية ضم إليها أهم التصنيفات العربية، وغيرها. كما كان يوجد بالجوامع مكتبات ولاسيما الجامع الكبير بمدينة «بلرم» وقد أدخل المسلمون على المكتبة عناصر جديدة منها أنهم نشروا الكاغد، فكثرت الكتب، ومنها الانتقال من الدرج الملفوف إلى الدفتر المسوط، ومنها تزيين الكتاب وإبتداع الخط الكوفى الزهر، والمزين، والمذهب، ومنها الطباعة الخشبية التى جلبها العرب من الصين على عهد هارون الرشيد.

#### ٥- العلوم والمعارف فى صقلية

##### أ- علوم القرآن:

أقدم إشارة وصلتنا عن علماء صقلية فى مجال القراءات، ما أورده ابن الزبير فى "صلة الصلة" من أن أبا على الحسن بن عبد الرحمن بن عبد ربه البجلى الصقلى، كان مقرنا بصقلية، وقد أخذ القراءة عن صهره يوسف بن تعيشت المقرئ، وقد توفى بصقلية سنة ٢٦٠هـ/ ٨٣٥م. ولم يعطنا النص أى تفضيل عن الصقلى المذكور سوى تلك الإشارة فقط.

ومن علماء صقلية الذين ورد ذكرهم فى المصادر، وكان لهم اهتمام بعلم القراءات محمد ابن خراسان الصقلى المتوفى بصقلية سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، فقد وصف بأنه : مقرئ متصدر، إلى جانب أنه نحوى، وكانت له رحلة إلى مصر سمع فيها من بعض علمائها المتخصصين فى علم القراءات، وأخذ عنهم، فقد درس على يد المظفر بن أحمد بن حمدان المتوفى سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، وأخذ القراءة عنه. كما أنه التقى بأحد العلماء المشهورين فى الدراسات القرآنية والنحوية



بمصر، وهو أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م وسمع منه مؤلفاته وكتبها عنه.

ومن خلال ما أوردته المصادر عن ابن خراسان الصقلي، وردت إشارة إلى أن له مؤلفات تتعلق بالدراسات القرآنية، كما أن وصفه بأنه مقرئ متصدر يدل دلالة واضحة على أنه صاحب باع كبير في علم القراءات، فقد تصدر للإقراء بمساجد صقلية وحدث بها. وذلك بعد عودته من رحلته إلى مصر في طلب العلم إلى بلاد المشرق الإسلامي، والتقى بعلمائهم، وقرأ عليهم، وعاد إلى صقلية وتصدر للقراء بها، ومن العلماء الذين درس عليهم أبو العباس

أحمد الصقلي، قسيم بن مطير، وعلى بن داود الدراني، وإسحاق بن السراك البكري، كما قرأ على أبي الفتح فارس بن أحمد. وبالنظر إلى شيوخ أبي العباس الصقلي نجد أنهم كانوا علماء لهم مكانتهم الضابطين لأكثر من رواية، وبذلك يتبين مدى ما تمتع به أبو العباس الصقلي من دراية في علم القراءات جعلته يتصدر للإقراء.

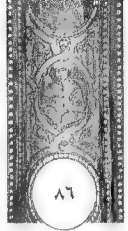
ولقد تخرج على يدي أبي العباس في صقلية أحد علمائها المشهورين في علم القراءات وهو أبو بكر محمد بن أبي الحسن الذي يعرف بابن نبت العروق.

كما ذكرت المصادر أيضاً علمين من أعلام صقلية في علم القراءات، كانت دراستهم على أحد مشاهير القراء في مصر وهو العلامة عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون صاحب كتاب «الإرشاد في السبع»، والمتوفى سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م حيث ذكر أن الحسن بن عبد الله الصقلي وأبا الحسين محمد بن قتيبة الصقلي قد عرضا قراءتهما على الشخص المذكور، ولم تزد المصادر على ذلك شيئاً ولم تعطنا معلومات أوفى عن هاتين الشخصيتين.

ومن أشهر علماء القراءات الصقليين، والمبرزين في هذا الميدان، وميدان النحو أبو الطاهر إسماعيل بن خلق بن سعيد بن عمران الصقلي المتوفى سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م.

فقد أخذ أبو الطاهر مؤلفات تتعلق بالدراسات القرآنية، إذ صنف كتاب «العنوان في القراءات» والذي قيل عنه: «إن عمدة الناس في الاشتغال بهذا الشأن عليه». كما صنف أيضاً كتاب «الاكتفاء» توفي القراءات أيضاً، ثم لخص من كتاب الاكتفاء كتاباً مختصراً «فيما اختلف فيه القراء السبعة» ذكر فيه اختلاف القراء السبعة بإيجاز واختصار في أسلوب سهل وبسيط.

كما أن أبا الطاهر اختصر كتاب «الحجة» لأبي علي حسن بن أحمد الفارسي، وانتفع الناس بذلك العمل الذي قام به. وله كتاب أيضاً في إعراب القرآن يقع في تسعة مجلدات:



ومن علماء صقلية فى القراءات\* أبو بكر محمد بن أبى الحسن على الأزدى الصقلى المتوفى سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م. وهو الذى يعرف بابن نبت العروق. وقد وصف بأنه شيخ متصدر، وكان قد تلقى القراءات فى صقلية على أبى العباس أحمد بن محمد الصقلى - الذى أشرنا إليه آنفاً - ثم التقى فى القيروان بأبى على الحسن بن بليمة. وقرأ عليه.

ومن علماء القراءات الصقليين خلوف بن عبد الله البرقى والذى كان حياً وسط المائة الخامسة للهجرة، فقد ورد أنه كان عالماً بالقراءات والإعراب، فكان بذلك من كبار علماء القراءات فى صقلية؛ إلى جانب كونه أديباً فقد ذكر له القفطى بعضاً من شعره فى الوعظ والإرشاد.

وقد أورد أبو طاهر السلفى فى معجمه عن غلصاء صقلية فى الدراسات القرآنية، حيث إنه أشار إلى عدد منهم، وذكر ملاقاته لهم، وتبادل الحديث معهم؛ ومن هؤلاء: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القناد، حيث وصفه بأنه: «من شيوخ المدينة بصقلية والمقدمين فى الإقراء بها»، ومنهم محمد بن إبراهيم الشامى.

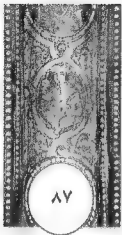
ومن أوردتهم السلفى فى معجمه، أبو حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الحذاء الصقلى المتوفى سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م وكان قد قرأ القرآن على المقرئين السابقين محمد بن عبد الله القناد، وعبد الله بن فرج المدينى.

وقد أشار ابن الجزرى فى طبقاته إلى ابن الحذاء الصقلى، ووصفه: «بالمقرئ الزاهد القدوة».

ومنهم أبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ الصقلى، الذى ولد بصقلية سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، وكان قد قرأ القرآن فى صقلية على يد علمائها وشيوخها فى الإقراء، فقد قرأ على أبى محمد عبد الله بن فرج المدينى، ومحمد بن إبراهيم الشامى، وأبى بكر محمد بن الأزدى الصقلى، المعروف بابن نبت العروق، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله القناد، وهؤلاء هم الذين وصفهم السلفى بأنهم «شيوخ المدينة بصقلية، والمقدمون فى الإقراء».

ومن أشارت إليهم المصادر فى علوم القرآن وقراءاته أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج بن أبى القاسم المازرى، المعروف بالذكى فى علوم القرآن وغيره، وكان للمازرى المذكور مؤلفاته فى علوم القرآن وتفسيره، ومن ذلك كتاب «الاستيلاء» وهو كتاب فى علوم القرآن.

وقد ذكرت لنا المصادر مقرئاً من صقلية يدعى على بن كموس، الذى وُصِفَ بأنه: «شيخ مقرئ»، وأنه قرأ على ابن نقيس، وأبى الطاهر إسماعيل بن خلف، كما قرأ عليه أحمد بن محمد بن خلف.



أما أشهر علماء صقلية فى القراءات فهو ابن الفحام الصقلى ؛ واسمه عبد الرحمن بن عتيق بن خلف الصقلى، ويكنى بأبى القاسم، ويعرف بابن الفحام الصقلى.

أما عن علم التفسير ووضعه فى صقلية فإن المصادر شحيحة فى إعطائنا معلومات عن المفسرين بصقلية وجهودهم فى مجال التفسير. وكل ما أمدتنا به المصادر لا يتعدى كلمات يسيرة عن بعض أعلام صقلية، فتشير إلى أنه من أهل القرآن والتفسير، ومن ذلك ما أورده القفطى من أن أبا بكر محمد عبد الله المقرئ النحوى الصقلى، كان " من أهل القرآن، والورع والتعفف".

### ب- علم الحديث:

وفيما يتعلق بالدراسات المتعلقة بالحديث النبوى الشريف فى صقلية، وجهود علمائها فى هذا المجال، فقد ذكرت المصادر أن من أوائل محدثيها، أبو العباس القلورى، والمتوفى سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م. واسمه محمد بن عمرو بن العباس. وقد روى عنه وحديث عن أبى داود السجستانى، فى سننه، وسماء فى بعض الروايات، محمد بن عمرو بن العباس.

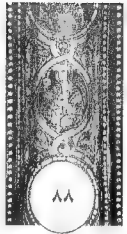
ومن علماء صقلية فى مجال الحديث "على بن الحسن الصقلى القزوينى"، المتوفى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م حيث ذكر ابن حجر: أنه سمع الكثير فى بلده صقلية ثم سافر ورجع، فآلف وأملى، وله كتاب "سر الأسرار من كلام الشيوخ الأخيار".

وكان على بن الحسن الصقلى قد التقى فى رحلاته ببعض الشيوخ ودرس عليهم، وكان من هؤلاء ابن شاهين.

ومن اشتهر بدراسة الحديث فى صقلية أحد الأمراء الكليبيين. حيث ذكرت المصادر أن أبا محمد عمار بن المنصور الكلبى، كان عالما مشهورا من علماء الحديث، وأنه من أفاضل العلماء وسادات الأمراء، وأنه ذو يد فى الفقه والحديث النبوى الشريف.

كذلك كان من أعلام صقلية فى مجال الحديث أبو بكر محمد بن إبراهيم بن موسى التميمى، المصرى، الصقلى، الصوفى المتوفى بعد سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م. وقد سافر فى طلب الحديث إلى العراق وحضر بعض مجالس أهل العلم، وعاد إلى صقلية وكتب الكثير، وقال عنه المقرئى: أنه حدث بأحاديث يسيرة، وروى عن عبد الله بن محمد المباركى، وحفص بن عمر شيبخه.

ومن أهل الحديث فى صقلية أيضا: أبو عمران موسى بن الحسن بن عبد الله بن يزيد الصقلى، والذى سافر فى طلب الحديث إلى مصر، ودرس بها، وحدث بها. ومنهم ابن القراء الصقلى، حيث ذكر أنه من المحدثين الصقليين.



كما أشارت المصادر إلى أسماء بعض الصقليين الذين كان لهم دور في الدراسات المتعلقة بالحديث، دون أن تعطينا أى تفاصيل عن ذلك الدور ومن هؤلاء عبد الرحمن بن محمد بن بكر، الذى وصف بأنه كان ينزع إلى الصوفية، وسافر عبر بلاد المغرب ومصر والحجاز لطلب العلم، والحسن بن على الصقلى الذى توفى بمكة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠١م. وأبو القاسم الصقلى المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م. وكذلك أبو مسعود سليمان الصقلى، والذى وصف بأنه من صغار المحدثين الصقليين، وأنه استقر فى بغداد.

ومن العلماء الصقليين الذين كان لهم دور بارز فى الحديث، أبو بكر القرصى الصقلى، وهو أحد فقهاء صقلية. فقد روى الحديث عن أحد علماء الحديث بالقيروان وهو الشيخ على بن محمد المعافى، المعروف بالقاسى. ومن علماء صقلية فى الحديث أبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله الصقلى. الذى وصف بأنه من أهل القراءات والحديث، وروى حديث ابن عمر السابق الذكر «الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» عن المالكى صاحب كتاب «رياض النقيس».

وكان محمد بن مسلم بن محمد بن أبى كبر القرشى المازرى من محدثى صقلية، وقد توفى سنة ٥٣٠هـ / ١٣٦م بالإسكندرية، وكان قد درس الحديث على أبى بكر الطرطوشى.

ومن علماء الحديث الصقليين المهاجرين إلى مصر، أبو عبد الله الحضرمى، والذى قام بتدريس الحديث بها، فدرس عليه طلاب العلم، ومنه أبو موسى عيسى بن خليفة بن مروان اللخمى، المالكى، وأبو السيار غادى بن سند بن عياش الغسانى المتوفى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م، وكرم بن الصفار.

وكان لابن الفحام الصقلى دور فى تدريس الحديث إلى جانب شهرته فى علم القراءات، فقد درس عليه الحديث فى الإسكندرية، أبو السيار غادى بن سند سابق الذكر أنفا.

وفى مصر كذلك نجد أن الأديب الصقلى، مجبر بن محمد بن عبد العزيز، قد قام بتدريس الحديث فى الإسكندرية، وكان ممن درس عليه أبو الطاهر السلفى حيث قال: "وقرأت عليه شيئا من الحديث، سمعه على أبى الحسن الخلقى".

كذلك كان من أشهر علماء صقلية فى الحديث، الشيخ المحدث، أبو بكر عتيق بن على بن داود بن يحيى، التميمى، المالكى، الصقلى، الذى يعرف بالسمنطاوى، المتوفى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م. وكان قد درس الحديث والفقه على علماء بلده. وظل يدرس الحديث فى صقلية حتى بدأ النورمان فى السيطرة عليها، كما رحل فى البلدان فسافر إلى الحجاز، واليمن والشام وفارس وخراسان، والتقى بعلمائها وألف فى الفقه والزهد.



ومن أسهم في دراسة الحديث النبوي، ابن عقال الصقلي الذي كتب كتابا بعنوان "فوائد ابن عقال" وكان تأليفه له في سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م. وهو كتاب تناول فيه مؤلفه، المقارنة بين كتب الصحاح الستة، ويروى فيه عن أحد فقهاء القيروان، وهو إسماعيل بن إسحاق بن عذره.

### ج- علم الفقه:

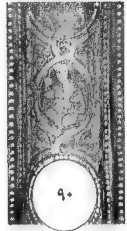
تأثرت الدراسات الفقهية في صقلية بما كان في القيروان من دراسات فقهية في البدايات الأولى، حيث وفد إليها عدد كبير من العلماء والفقهاء من القيروان بعد فتح صقلية، وكان على رأس هؤلاء القاضي القائد الفاتح أسد بن الفرات، وبعض أتباع فقيه إفريقية سحنون، كعبد الله بن حمدون الكلبي، وعبد الله بن سهل القبرياني الذي تولى قضاء صقلية، ودعامه بن محمد الفقيه، وكان قاضيا على صقلية. والفقيه أبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب الإفريقي، وهو أيضا ممن تولى قضاء صقلية.

ومن أصحاب سحنون أيضا أبو الربيع سليمان بن سالم القطان والذي يعرف بابن الكحالة، وقد وفد إلى صقلية قاضيا عليها ' وفيه قال الشيرازي: «وعنه انتشر مذهب مالك بها».

ومن الفقهاء الذين وفدوا على صقلية أبو سعيد لقمان بن يوسف الغساني الذي ظل يدرس المدونة لمدة أربعة عشر عاما بها. ومنهم أيضا محمد بن إبراهيم بن أبي صبيح الذي درس الفقه على أصحاب سحنون، وخرج إلى صقلية، وكذلك محمد بن محمد بن خالد القيسي، وهو من أصحاب محمد سحنون، فقد تولى قضاء صقلية مدة. وكان لاستقرار البرادعي بها أثره الكبير على الدراسات الفقهية، وهو الذي ألف كتبه بها.

وليس معنى أن صقلية تأثرت بدراسات القيروان الفقهية، أنه لم يتكون لها مدرسة فقهية خاصة بها من أبنائها الصقليين، فقد ظهرت تلك المدرسة ولكن في وقت متأخر نسبيا يرجع إلى القرن الرابع الهجري، ومن أسباب ذلك التأخير، طول فترة الفتح للجزيرة وما تبع ذلك من أحداث سياسية.

ومن أوائل فقهاء صقلية وشيوخها أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحصائري، الذي كان حياً في القرن الرابع الهجري، وبداية الخامس، حيث درس عليه بعض فقهاء صقلية المشهورين كابن يونس الصقلي المتوفى سنة ٤٥١هـ / ١٠٤٩م وعتيق السمنطاري، وعتيق بن عبد الجبار الربعي الفرضي الصقلي، وبذلك يكون ابن الحصائري الصقلي صاحب الدور الأكبر في تأسيس مدرسة صقلية الفقهية المستقلة عن القيروان، حيث إن هؤلاء الذين تخرجوا على يديه أصبحوا يمثلون فيما بعد شعلة النشاط الفقهي في صقلية.



ومن فقهاء صقلية أيضا أبو بكر بن العباس، وهو فقيه فاضل، درس على يد الفقيه على بن محمد المعافري، المعروف بالقباسي، صاحب كتاب «الملخص»، وقد أدخل أبو بكر بن العباس كتاب «الملخص» إلى صقلية. وفي صقلية قام أبو بكر بن العباس بتدريس «المدونة»، وعنه أخذها أهل صقلية، فكان من أشهر تلاميذه ابن يونس الصقلي، وعتيق السمنطاري. وقد أثنت المصادر على أبي بكر بن العباس الصقلي ووصفته بأنه: «إمام علم الفرائض». ولذلك تذكره المصادر باسم «الفرضي»، وأنه: «فقيه صقلية وعالمها ومدرسها».

ومن فقهاء صقلية الذين أشارت إليهم المصادر إشارة عابرة، ولم توضح ما يتعلق بدراساتهم ومؤلفاتهم وخلاف ذلك، عتيق بن عبد الجبار الربيعي الفرضي. فقد ورد أنه من شيوخ ابن يونس الصقلي، ومن تلاميذ ابن الحصائري الذي سبق ذكره آنفاً.

ومن أشهر فقهاء صقلية وعلمائها، ابن يونس الصقلي وهو «أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي»، المتوفى سنة ٤٥١هـ / ١٠٤٩م، وهو الذي أسس مع الفقيه عبد الحق الصقلي، والشيخ المحدث عتيق السمنطاري مدرسة صقلية الفقهية المستقلة.

ومع أن ابن يونس الصقلي من أشهر فقهاء صقلية، إلا أن كثيراً من المصادر لم تشر إليه، وخاصة تلك التي تتحدث عن التراجم. وقد امتدح القاضي عياض، ابن يونس الصقلي بقوله: «كان فقيهاً فرضياً حاسباً»، وقال عنه ابن فرحون: «كان فقيهاً، إماماً، عالماً، فرضياً»، وأضاف بأنه كان: «ملازماً للجهاد، موصوفاً بالنجدة»، وقال مخلوف عنه: «أنه أحد العلماء وأئمة الترجيح الاختيار».

ومن فقهاء صقلية «أبو بكر عتيق بن علي بن داود بن يحيى التميمي، المالكي، الصقلي المعروف بالسمنطاري» المتوفى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م، والذي وصفه بأنه «رجل صالح عابد»، وله مؤلفات في الفقه والحديث وصفت بأنها: «حسان وفي غاية الترتيب والبيان». وكان قد درس بصقلية على شيوخها أمثال الحصائري، وأبي بكر بن العباس الفرضي.

ويعتبر الفقيه السمنطاري، من مؤسسي مدرسة صقلية الفقهية، فهو من معاصري ابن يونس وعبد الحق الصقلي.

أما الفقيه أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الصقلي، الملقب بالإمام شيخ المالكية، المتوفى سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، فيعد من أشهر فقهاء صقلية، وعلى يديه تخرج كثير من فقهاء صقلية المتأخرين الذين أدركهم الغزو النورماندي على الجزيرة، وبعضهم استقر بها في ظل الولاية النورماندية، والبعض الآخر خرج منها.



#### د- علم الكلام:

عرف ابن خلدون علم الكلام بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردود على المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

ومن اشتغل بعلم الكلام من أهل صقلية، «أبو الفضل العباس بن عمرو بن هارون الكنانى الوراق» المتوفى سنة ٣٧٩ / ٩٢٧م، وكان قد خرج من صقلية إلى القيروان سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م، واستقر بها سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م، ثم خرج إلى الأندلس واتصل بولى العهد الحكم بن عبد الرحمن، وأصبح من جملة الوراقين لديه.

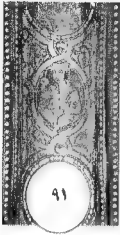
وقد وصف العباس بن عمرو بأنه «كان وسيماً حليماً، حسن الحكاية بصيراً فى الرد على أصحاب المذاهب، عالماً بالكلام، حافظاً لأخبار أبى عثمان الحداد الغسانى، فى مجلسه ومناظراته».

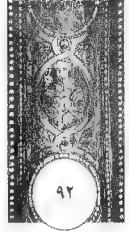
وقد غلبت عليه صفة علم الكلام حيث قال ابن الفرضى: «وكان هذا الفن-أى علم الكلام-أكثر علمه». وقد عاش العباس بن عمرو حتى علت سنه، وذهب بصره، وأصابه الفالج (مرض الشلل)، فقد جاوز الثمانين سنة إذ كان مولده سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م.

وقد ذكرت المصادر أن أبا بكر محمد بن سابق الصقلى المتوفى سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، كان متكلماً أصولياً، ولأبى بكر الصقلى هذا رسالة فى معنى كلام الله تعالى والرد على المخالفين، بين فيها مذهب أهل السنة والجماعة، ومذاهب أهل البدع، والخوارج والقدرية فى صفة كلام الله سبحانه وتعالى.

وكان أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج بن فرج المازرى المعروف بالذكى المتوفى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، كان يميل إلى الجدل والمناظرة، وقول أهل الكلام، فقد وصف بأنه كان فقيهاً، حافظاً، مدركاً، نبيلاً، فهماً، متقدماً فى علم المذهب واللسان، مستفتناً فى علم القرآن وسائر المعارف.

وكان لكثرة رحلات أبى عبد الله محمد بن أبى الفرج أثر كبير فى ميله إلى علم الكلام، ذلك أنه دخل إلى بغداد-وهو فقيه مالكى-ولم يجد بها إلا القليل من أتباع المذهب المالكى فلما لم تحل له بها رئاسة الفقه، مال إلى صناعة النظر وحذق الجدل. وكان المازرى الذكى كثير النقاش والاعتراضات مع حدة وغلظة كما كان ينفرد بأشياء من تفسير الأخبار وغيرها، لا يتابعه أحد فيها، وسببه إعجابه بنفسه.





ومن كان يميل إلى علم الكلام من أهل صقلية محمد بن مسلم بن محمد بن أبي بكر القرشي المازري الصقلي المتوفى سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٦م، حيث ذكر أنه قد غلب عليه الكلام والتحقيق، وتقدم فيه تقدماً، برز فيه على أهل وقته، وصنف فيه تصانيف قوية، وقد رحل إليه الناس للدراسة عليه في علم الأصول والكلام، وبلغ من ذلك مرتبة كبيرة حتى أنه كان يناظر الفرق.

وقد كانت مؤلفات محمد بن مسلم المازري منصبة على شرح مؤلفات أبي المعالي الجويني لإمام الحرمين، حيث شرح المازري كتاب "البرهان" في أصول الفقه وكتاب "الإرشاد" في علم الكلام.

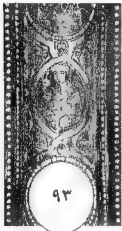
ومن فقهاء صقلية الذين كان لهم دور في علم الكلام: أبو محمد المعروف بابن صاحب الخمس، حيث وصف بأنه فقيه متكلم، إمام في علوم الأصول، نافذ في علم الفروع، متورع عن الإفتاء.

#### هـ- علم التاريخ:

كانت جهود علماء صقلية في التاريخ قليلة، فكان لأبي القاسم علي بن جعفر بن القطاع الصقلي كتاب بعنوان "تاريخ جزيرة صقلية" وهو مفقود، رآه ياقوت الحموي وقال: "وقرأت بخط ابن القطاع الدفوى على ظهر كتاب تاريخ صقلية: وجدت في بعض نسخ سيرة صقلية تعليقاً على حاشية، أن بصقلية ثلاثاً وعشرين مدينة، وثلاثة عشر حصناً، ومن الضياع مالا يعرف".

وأشار ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» إلى كتاب ابن القطاع الصقلي في تاريخ صقلية، وهو يتحدث عن مؤلفات ابن القطاع، إلا أنه أشار إليه باسم: «ذيل تاريخ صقلية»، وقد أشار صاحب «كشف الظنون» إلى الكتاب المذكور، وذكره السيوطي في «بغية الوعاة»، وصاحب «هدية العارفين»، و«معجم المؤلفين».

وألّف أبو علي الحسن بن يحيى الفقيه الصقلي، المعروف بابن الخزار كتاباً باسم «تاريخ صقلية»، وقد أشار إليه ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» ثلاث مرات، وأولاهها في مادة "بباو"، حيث قال ياقوت: "قال الحسن بن يحيى الفقيه صاحب تاريخ صقلية: أحد أضلاع صقلية الثلاثة يمر على ساحل البحر من المغرب إلى المشرق... وفي هذا الموضع من المواضع المشهورة أو قريباً منه مدينة البباو، وهذا الموضع هو ذنب الجزيرة وأقلها خيراً، وكان سجناً"، وثانيها، في مادة "جفلوذ" حيث قال: «الحسن بن يحيى الفقيه مؤلف تاريخ صقلية، قلعة جفلوذ وهي مدينة حصينة بصقلية فوق جبل عالٍ على شاطئ البحر...».



وثالثها، فى مادة "صقلية" حيث قال ياقوت: «وذكر أبو على الحسن بن يحيى الفقيه فى تاريخ صقلية حاكياً عن القاضى أبى الفضل: أن بصقلية ثمانى عشرة مدينة إحداها بلرم..».

وذكره ياقوت مرة رابعة فى «معجم الأدباء»، وذلك عند ترجمته لراوية المتنبى على بن حمزة البصرى اللغوى، حيث قال ياقوت: قال أبو على الحسن بن يحيى الفقيه الصقلى ويعرف بابن الحزار فى تاريخ صقلية من تصنيقه، وفى رمضان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة مات على بن حمزة اللغوى البصرى راوية المتنبى بصقلية وصلى عليه القاضى إبراهيم بن مالك قاضى صقلية.

أما فى مجال الجغرافيا، فلم نجد ذكراً فى المصادر لعلماء صقليين كتبوا فى الجغرافية إلا ما كان يتعلق بالشريف محمد بن محمد الإدريسي الصقلى، وكتابه "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق"، وذلك فى فترة السيطرة النورمندية على جزيرة صقلية.

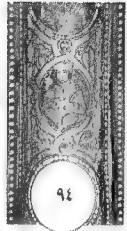
#### و-التصوف والزهد فى صقلية:

التصوف نزعة من النزعات، وليس فرقة مستقلة ثابتة الآراء والأهداف والتعليمات، وإن كان هناك بعض التماثل فى الأساليب، واعتماد التسلسل فى الطريقة، ولذلك يصح أن يكون الرجل سنياً متصوفاً، أو شيعياً متصوفاً، أو معتزلياً متصوفاً.

وليس من السهولة بمكان تعريف التصوف، ذلك لأن التصوف لم يكن له فى يوم من الأيام طريقة منظمة محدودة من الناحية النظرية أو العملية، بل كان له فى كل عصر مفهوم خاص. على أنه تعرض لتعريف التصوف العشرات من علماء الصوفية أو ممن كتب عنهم. فالجنيد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، عرف التصوف بتعاريف كثيرة منها: التصوف هو تصفية القلب من مراجعة الخلق والمفارقة من أخلاق الطبيعة، وإماتة الصفات البشرية، والابتعاد عن الدواعى النفسانية والنزول على الصفات الروحانية، والسمو إلى علوم الحقيقة ونصيحة الأمة كلها، والوفاء فى العمل بالحقيقة ومتابعة النبى فى الشريعة.

وقد وصل تيار الزهد والتصوف إلى صقلية الإسلامية من إفريقية، وذلك بحكم العلاقة بينهما، فمنذ أن توجه المسلمون لفتح صقلية ظهر فيها ميل إلى الجهاد مصحوب بميل آخر وهو المراقبة والعبادة، ومن أجل ذلك بنى رباط على الساحل الإفريقى التجأ إليه الزهاد والصالحون ليطمئنوا إلى الهدوء فى تعبدهم، وليطمئنوا على وطنهم من الغارات الخارجية.

وقد زاد تيار الزهد والتصوف وقوى فى صقلية بعد قيام الدولة الفاطمية فى المغرب وخضوع جزيرة صقلية لها، وما نتج عن ذلك من صراع بين الدولتين العباسية والفاطمية.



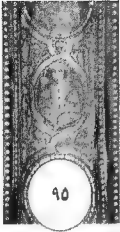
ومن مظاهر الزهد والتصوف التي دخلت إلى صقلية، من إفريقية ما مثله القضاة الذين دخلوا إليها، ومن هؤلاء أبو عمرو ميمون بن عمرو المتوفى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م، الذي تولى قضاء صقلية في عهد الأغالة وقبل وصوله إليها قال لأهل سوسة التي خرج منها: «يا أهل سوسة هذا كسائي وجلبتي وخرجي فيه كتيبي وهذه السوداء تخدمني، معها كساؤها وجبتها، بهذا خرجت، وانظروا بأي شيء أرجع»، وعند وصوله إلى صقلية قيل له: هذه الدار دار القضاء تنزل فيها فقال: «هذه دار عظماء أي شيء أعمل فيه»، واستمر حاله كذلك حتى نزل في حجرة، وكانت خادمته تغزل وتبيع غزلها وتطعمه، وإذا قرع أحد الباب، خرجت السوداء، وقالت للناس الساعة يخرج إليكم القاضي، وأقام على ذلك سنين إلى أن مرض ودخل الناس لزيارته فوجدوا تحته حصيرا وعند رأسه وسادة محشوة بالبتن.

ثم خرج أبو عمرو ميمون إلى القيروان وهو عليل، فلما وصل سوسة قال لهم: يا أهل سوسة كما خرجنا رجعنا، هذا كسائي وجبتي وخرجي فيه كتيبي، وهذه السوداء كذلك، والله ما تلبست بشيء من دنياكم حتى انصرفت".

وكان للزهد والتصوف في صقلية سمات خاصة، من أهمها تأسيس التصوف على الكتاب والسنة، وهذا من آثار التزامهم بمذهب الإمام مالك رحمه الله، الذي التزم بالنسبة أتم الالتزام، وبذلك قام التصوف في صقلية على أساس من السلامة الفقهية أنها كانت منصبة على التمسك بالمذهب المالكي، وشرح مصادره والزيادة عليها واختصارها وخلاف ذلك.

ومن سماته أيضاً أن ظهرت فيه آثار الحياة الاجتماعية المضطربة آنذاك، نتيجة لكثرة الحروب، وعدم الاستقرار الاجتماعي، في فترة الانتقال من التبعية للأغالة الذين يدينون بالولاء للعباسيين السنيين، إلى تبعية الدولة الفاطمية الشيعية. فكان التصوف يمثل ما بداخل النفوس من سوء الحال ورد فعل الحياة الاجتماعية، ومحاولة جادة للإصلاح الاجتماعي بدءاً من إصلاح الفرد دينياً وخلقياً، وقد صور لنا ذلك كله أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الصقلي المتوفى سنة ٣٨٠ / ٩٩٠م، في كتابه «الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار».

كما خضع التصوف في صقلية في نشأته لمؤثرين قويين، أولهما: الاتصال بالشرق عن طريق الحج إلى مكة، ومشاهدة الصقليين للعباد والمنقطعين حول البيت الحرام، أما المؤثر الآخر وهو الأقوى فهي الحياة الاجتماعية، وما يظهر فيها من الفساد وعدم الاقتران بين العلم والعمل وطلب بعض الناس للدنيا بطريقة الزهادة والنسك، فكان التصوف بذلك في واقعه رفضاً لذلك في محاولة لإصلاح الفرد من أجل أن تصلح الجماعة.



ومن ذكرتهم المصادر من زهاد صقلية، الذين ظهوروا في نهاية القرن الثالث الهجرى وبداية الرابع، أبو الحسن الصقلى الجزيرى المتوفى سنة ٣٢٩هـ / ٩٣١م.

فقد ورد أنه كان من خيار الناس وأنه كان صامتا لا ينطق إلا بذكر الله عز وجل، أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوه، واجتر نفسه وتواجد و قال: واهاب عمرى فى خسارة.

وقال أبو سليمان ربيع القطان: سمعته-أى أبو الحسن الصقلى-يقول:

«والله الذى لا إله إلا هو ما شئ فى وقتى هذا أقر لعينى من القدوم على الله تعالى؛ لأننى قد تحقق ظنى به، فقلت له: سررتنى والله».

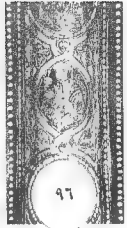
وكان أبو الحسن الصقلى يروى فى مجلسه حكايات عن الزهاد فى صقلية الذين التقى بهم ورأهم، مما له علاقة مباشرة بحياة هؤلاء الأشخاص وانقطاعهم للعبادة، وهو بذلك كان يرغب الناس فى مثل تلك الحياة، وأنها تمثل تغلباً على الشيطان وتحدياً له، فكان مما رواه فى مجلسه ونقله عنه أبو سليمان ربيع القطان قوله: «كان عندنا يا أبا سليمان بثغر صقلية رجل يقال له أبو على الطنجى، وكان من الكدادين عمره كله، وكان من أهل الشغل والذكر، وكان يظهر له عدوه إبليس فى هيئة إنسان، قال: فكان يقول له العدو(أى إبليس): أنضحت قلبى بكذك، فوالله لأنضحن قلبك، أو تكف عما أنت فيه، قال:

فيقول أبو على: إليك عنى يا عدو الله، والله لا زلت هكذا إن شاء الله تعالى أبداً. فبينما هو ذات يوم راقد على سدة إذ قلبه عدو الله من فوقها، فأنجرح له موضع السجود، فلم يزل يتورم ويتشر حتى أخذ الوجه، فكان يأتيه العدو فيقول له: أقصر ويزول عنك. ما تجحد، فيقول: اذهب يا عدو الله والله لا أقصر أو أموت، فكانت تلك العلة سبب موته».



رسم الطبيب ديسقوريدس مع أحد تلاميذه من كتاب خواص العقاقير

ومن زهاد صقلية ومتصوفها سعيد بن سلام الصقلى، وهو من أهل جرجنت، وقد رحل إلى الحجاز، وحظى باحترام كبير، ثم توجه إلى بلاد فارس، وتوفى بها سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣م، ووصف بأنه: «لم ير مثله فى علو الحال وصون الوقت وصحة الحكم بالفراصة».



ومن أقدم زهاد صقلية ومتصوفها أبو بكر محمد بن إبراهيم بن موسى التميمي، المصرى الصقلى، والذي كتب الحديث وسافر فى طلبه إلى العراق، وحدث بأحاديث يسيرة، كما كان يحضر مجالس الجنيد الصوفى المتوفى سنة ٣٩٧هـ / ٩٠٩م.

وأشارت المصادر إلى أن أبا القاسم عتيق بن محمد الحاكم التميمي الصقلى المتوفى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩ م، كان من زهاد صقلية، ووصف بأنه: شيخ صالح زاهد، معرض عن الدنيا مقبل على الآخرة، وكان من عباد الله الصالحين، قال السمعاني: «ما أظنه حدث بشيء غير أنى رأيت الألسنة متفقة على الثناء عليه ووصفه بالخير والصلاح».

أما خير من يمثل التصوف فى صقلية فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى المالكي، الملقب بعماد الدين الصوفى، المعروف بإمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة المتوفى ٣٨٠هـ / ٩٩٠م.

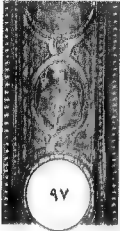
#### ز-العلوم الطبيعية:

فى مجال الطب، أشارت المصادر إلى عدد من الأطباء الصقليين، منهم أبو عبد الله محمد بن الحسين الطوبى الصقلى، النحوى الذى وصف بأنه "أربى فى النحو على نفطوية، وفى الطب على ابن ماسويه". وقد وصفه ابن القطاع بقوله:

أيها الأستاذ فى الطب      وإعراب الكلام  
لك فى النحو فى إسماعيل      لا يساميه مسام  
ثم فى الطب علاج      دافع الداء العقسام

ولم يذكر لابن الطوبى مؤلف معين فى مجال الطب، ولم تحدد له فيه جهود.

ومن الأطباء الصقليين، طبيب يدعى بأبى عبد الله الصقلى، كان له دور بارز فى ترجمة كتاب "ديسقوريدس فى العقاقير من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. فقد كان يتكلم اليونانية ويعرف مسميات وصفات الأدوية. وذلك أن الناصر عبد الرحمن بن محمد، صاحب الأندلس أهدى إليه كتاب ديسقوريدس من الإمبراطور البيزنطى "أرمانئوس" (٥٠٩-٩٥٩) فى سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى. وكان فى قرطبة فى تلك الأيام من الأطباء الذين يعرفون اللغة اليونانية عدد كبير ومنهم أبو عبد الله الصقلى الذى اشترك مع مجموعة الأطباء تلك فى ترجمة الكتاب المذكور.



قال ابن جليجل عن مجموعة الاطباء تلك: «وكان هؤلاء النفر كلهم فى زمان واحد، وصحبتهم فى أيام المستنصر الحكيم ... فصح يبحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينه قرطبة، ما أزال الشك عن القلوب، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذى لا بال به، ولا خطر منه، وذلك يكون فى مثل عشرة أدوية».

وأشارت المصادر إلى أن أبا الحسن على بن إبراهيم بن على النحوى، المعروف بابن المعلم الصقلى، كان قد قرأ الطب، وتعبير الرؤيا، هذا إلى جانب بروزه فى علم النحو، إلا أن المصادر لم تذكر لنا من جهوده فى مجال علم الطب شيئا يذكر.

وتضمنت بعض قصائد ابن حمديس الصقلى، إشارة إلى أحد أطباء صقلية، وذلك هو أبو الحسن على بن حسين بن أبى الدار الصقلى، وهو ابن عمه ابن حمديس، وزوج أخته، فقد كان يصفه ابن حمديس بأنه «بقراط دونة فى الطب والحكمة».

وتشير المصادر إلى أن القائد ابن الثمنة، قد غضب على زوجته وجرى بينها وبينه خصام وهو فى حالة سكر، فأمر بفصدها، وتركها لثموت، فسمع به إبراهيم بذلك، فغضب، وأسرع فجلب لها الأطباء فعالجوها.

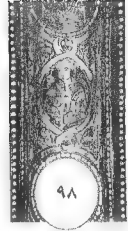
ويستفاد من هذا الخبر، أن صقلية كان بها أطباء، وإن لم تشر المصادر إليهم. أضف إلى ذلك أن الخبر بصيغة الجمع، وهذا فى مدينة واحدة من مدن صقلية. وقد يدل الخبر على أن الذين حضروا لعلاج امرأة ابن الثمن إنما هم مجموعة من أطباء مدينة واحدة، وليس جميع أطباء تلك المدينة، مما يوحى ذلك كله بوجود نشاط طبي كبير فى جزيرة صقلية آنذاك.

وكان الإمام أبو عبد الله المازرى صاحب كتاب «المعلم بفوائد مسلم» من علماء صقلية الذين لهم دراية بالطب، فقد ذكرت المصادر أنه إلى جانب نشاطه فى الحديث والفقه والأصول، كان من أهل العلم بالطب، وإليه كان يفرغ فى الفتوى فى الطب فى بلده، كما يفرغ إليه فى الفتوى فى الفقه.

وتشير المصادر إلى حادثة حدثت للإمام أبى عبد الله المازرى، بدأعلى أثرها فى تعلم الطب، والاطلاع على علومه، فذكرت أنه مرض فكان يطبّه يهودى، فقال له اليهودى: يا إمام أنتم تعلمتم علوم دينكم، وتركتم علوم أباؤكم وأى قرية أجدها فى دنى مثل أن أفقد المسلمين عالم مثلكم فى هذا القطر فأخذت هذه المقالة فى نفس المازرى مأخذها، فمن حيثئذ نظر فى الطب.

وعلى الرغم من أن كلام الطبيب اليهودى يتنافى وطبيعة الصناعة وأخلاقيها فإن ذلك كان دافعا قويا للإمام أبى عبد الله المازرى فى دراسة الطب، والبراعة فيه، وامتلاك زمامه.

## أثر صقلية الإسلامية على أوروبا



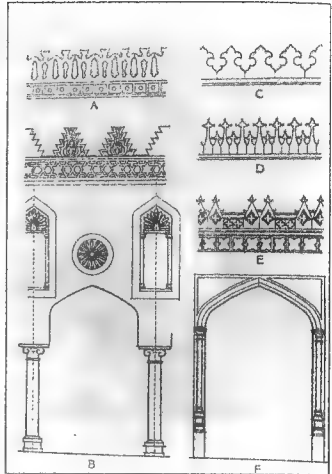
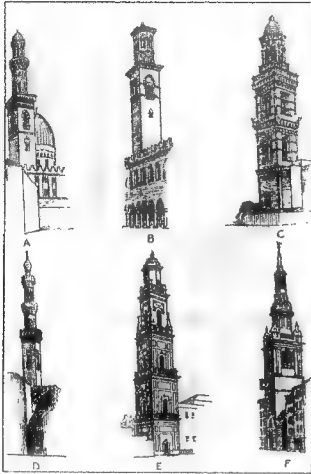
مرت أوروبا بمرحلة تاريخية مظلمة بدأت منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م، وما تبع ذلك من انكماش الحضارة الرومانية تدريجياً من إيطاليا وإسبانيا وغالياً "فرنسا" وإنجلترا، وغيرها من البلاد التي خضعت للرومان أيام سطوتهم، وذبلت المدن الرومانية، وأقفلت المدارس أبوابها، وانتشار الجهل، ولم يبق أثر للحضارة والمعرفة في غرب أوروبا، واتصف ما بقي من التعليم بطابع ديني، حيث اقتصر على من يطلق عليهم "رجال الدين".

وإذا كان قد ظهر في الغرب الأوروبي بريق حضارة في أواخر القرن الثامن الميلادي وأوائل التاسع، فإنها سرعان ما انطفأت وذبلت، وذلك البريق كان قد ظهر بعد تويج شارلمان في سنة ١٢٤هـ / ٨٠٠م، إمبراطوراً لعرش غاليا (فرنسا)، وعرف باسم "النهضة الكارولنجية" وهي نهضة اقتصرت على إحياء جانب من التراث القديم، دون محاولة الابتكار والتجديد، وأمام هجمات الفكيكج، تفككت تلك الإمبراطورية.

ودمر ما تبقى من مراكز الحضارة كالمدين والأديرة والكاتدرائيات، وعادت الظلمة من جديد إلى أوروبا، واستمرت حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي.

وعندما أفاق الغرب من سباته وجد نفسه أمام حضارة إسلامية شامخة البناء فلم تترك أدبياً ولا عالماً ولا فناً إلا وأسهمت فيه بقسط وافر. واتجه طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء أوروبا إلى مراكز الحضارة الإسلامية لينهلوا من معينها الصافي، ويترجموا كل ما استطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين. وكل ذلك أدى في النهاية إلى بزوغ حضارة شاملة في أوروبا أطلق عليها في التاريخ اسم «النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر» أو اسم «النهضة الوسطية» فكانت أطول عمراً وأكثر استمراراً وأوسع أفقاً وأشد أثراً عما سبقها من حضارات وبذلك قامت وتعدت مرحلة المحاكاة إلى الابتكار والتجديد، وأن حضارة أوروبا الحديثة قامت على أساس واضح من المدنية الإسلامية بجميع فروعها.





(لوحة 705) نماذج معمارية للمقارنة.

A - مسجد ابن طولون بالقاهرة بمصر (٨٦٨م).

B - عقد بالجامع الأزهر بالقاهرة بمصر (٩٧٠م).

C - شرافات بمسجد زين الدين يوسف بالقاهرة بمصر

(١٢٩٨).

D - شرافات بقصر كادورو بالبندقية بإيطاليا (١٤٣١م).

E - شرافات في كنيسة كرومر بنورفولك (القرن ١٥م).

F - عقد تيودوري في يهو كنيسة المسيح باكسفورد

بانجلترا (القرن ١٦م).

(عن تراث الإسلام)

(لوحة 706) مآذن وأبراج للمقارنة.

A - مئذنة بمدرسة سنجر الجولي بالقاهرة (١٣٠٣ -

١٣٠٤م).

B - برج دل كومينو في فيرونا بإيطاليا (١١٧٢م) وبرج

الناقوس (١٣٧٢م).

C - في قبة سبوليتو بإيطاليا (١٣٩٧م).

D - مئذنة ضريح برقوق بالقاهرة بمصر (١٤٠٠ -

١٤١٠م).

E - في قبة ليكي بجنوب إيطاليا (١٦١١ - ١٦٨٢م).

F - برج كنيسة سانت ماري لوبو بلندن (٦٧١ -

١٦٨٤م).

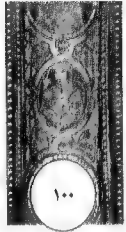
(عن تراث الإسلام).

تأثير العمارة الإسلامية على العمارة الأوروبية



قصر من عصر النهضة الأوروبية بجزيرة صقلية

وقد ذكر المؤرخون أن  
الطرق أو المعابر التي وصلت  
بها علوم الحضارة الإسلامية  
إلى أوروبا كان أهمها ثلاث  
طرق هي:



## ١- الشرق الأدنى والحروب الصليبية:

فقد كان لبلاد الشام والشرق الأدنى شأن  
هام في نقل بعض مظاهر الحضارة الإسلامية إلى  
أوروبا في العصور الوسطى. ويرتبط ببلاد الشام  
الحروب الصليبية وما نتج عنها من صلات  
سياسية وحضارية وتجارية بين الشرق الإسلامي،  
والغرب المسيحي. حيث اكتسب الصليبيون

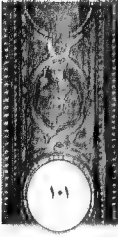
بعض معارفهم نتيجة لتلك الصلات، فانتقلت إليهم بعض الصناعات، والعقاقير، وفن العمارة  
والهندسة، وبناء الحصون والقلاع، كما انتقلت إليهم كثير من التقاليد الإسلامية في الملبس  
والمأكل، ودخلت كثير من ألفاظ اللغة العربية إليهم.

## ٢- الأندلس:



المسجد الكبير بقرطبة - الأندلس

يعد هذا المعبر أهم معابر  
الحضارة الإسلامية إلى أوروبا،  
وأشدّها تأثيراً في تغيير وجه  
أوروبا المظلم، فقد عاشت  
الأندلس عصوراً مزدهرة علمياً  
في عصور الخلافة، وحتى في  
عصور ملوك الطوائف؛ ونشطت  
المدن الزاهرة فيها بالثقافة  
الإسلامية قرطبة مثلاً، وبعد  
سقوط طليطلة في سنة ٤٧٨هـ /



١٠٨٥م فى أيلدى المسيحيين ازداد  
تدفق طلاب العلم من مختلف  
بلدان غرب أوروبا على إسبانيا  
الإسلامية للاستزادة من الدراسات  
الإسلامية، فنشطت حركة الترجمة  
عن العربية نشاطاً منقطع النظير،  
فترجم إلى اللاتينية كثير من  
مؤلفات المسلمين، كما ترجم إلى  
العربية كثير من مؤلفات اليونانيين.



### ٣- صقلية كمعبر للحضارة الإسلامية؛

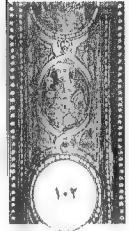
وهى إحدى معابر الحضارة الإسلامية إلى  
أوروبا، ونحن هنا لسا فى حاجة إلى أن نعيد بعض  
ما ذكرنا عن تطور المدينة الإسلامية فى جزيرة  
صقلية من الناحية الاقتصادية، كالصناعة والزراعة  
مثلاً، أو الناحية الثقافية. فالحضارة الإسلامية فى جزيرة صقلية لم تنته بانتها السيادة الإسلامية،  
بل استمرت فى عهد حكامها النورمان. ونتج عن ذلك كله أن وصلت كثير من العلوم والمعارف  
الإسلامية إلى جنوب إيطاليا بصفة خاصة وغرب أوروبا بصفة عامة، عن طريق صقلية.

عنقاء (طائر خرافى) من البرونز - منخورة  
بأسلوب فاطمى وجد فى جنوب إيطاليا

أما عن أثر الحياة العلمية فى صقلية الإسلامية على أوروبا، فلقد كان واضحاً فى عدة  
جوانب، وكان منها أن اللغة العربية بقيت بعد سقوط صقلية  
تشارك غيرها من اللغات فى الحياة اليومية والدراسات  
العلمية بالجزيرة، حتى أن بلاط حكام صقلية  
النورمان أصبح يعج بالمتكلمين بالعربية من علماء  
وخاصة وزراء وغيرهم. بل زاد الأمر على ذلك  
فكان الحكام النورمان يتكلمون العربية، ويصدرون  
بها مراسيمهم. ونتج عن ذلك أن كثيراً من الألفاظ  
العربية لازالت موجودة فى اللغتين الصقلية-  
والإيطالية، كما لا تزال عدة أماكن بصقلية تحمل أسماء  
عربية، ولا سيما أسماء القلاع والراسى والشوارع.



خريطة الإدريسي



يقول لويجي رينالدى: «أن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى لغتنا الإيطالية التى تفوق الحصر، دخلت فى اللغة لا بطريقة الاستعمار العربى، ولكن بطريق المدينة التى كثيرا ما تؤلف وتؤاخى بين مظاهر الحياة المختلفة». وأضاف قائلا: «وإن وجود هذه الكلمات فى اللغة الإيطالية ليشهد بما كان للمدينة العربية من أثر عظيم فى العالم المسيحى، وبما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا وبين المسلمين فى الشرق وإفريقيا الشمالية وصقلية».

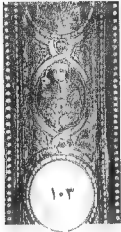
وفى مجال الترجمة ساهمت صقلية بنصيب وافر فى ذلك، مما كان له أثره المباشر على أوروبا. فقد ترجم بها فى سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م كتاب بطليموس السكندرى فى المراثيات، وفى سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م ترجمت بعض كتب بطليموس الأخرى فى الفلك والرياضيات.

واشتهر من المترجمين فى القرن الثالث عشر الميلادى فرج بن سالم اليهودى، وهو من أصل صقلى وطلب العلم فى سالرنو حيث ترجم كثيرا من كتب العرب إلى اللاتينية وفى مجال الجغرافيا كان لصقلية أثرها الكبير على أوروبا ممثلة فى الشريف الإدريسى صاحب كتاب "نزهة المشتاق" الذى قسم العالم المعروف آنذاك من جهة الطول، فجعل كل إقليم مقسما إلى عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق، ثم جعل لكل قسم من هذه الأقسام خريطة خاصة، عدا الخريطة العالمية الجامعة.

كما صنع الإدريسى للملك النورماندى، روجر الثانى خريطة كروية للأرض من الفضة، وقد طبع كتابه مع خرائطه السبعين فى روما سنة ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م، وترجم إلى اللاتينية سنة ١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م من قبل جيراثيل الصهيونى، ويوحنا الحصريونى. كما طبع أيضا فى لندن ومديرى وبون. ويعتبر كتاب الإدريسى "نزهة المشتاق" أفضل مؤلف تلتقى فيه الجغرافيا القديمة بالجغرافيا الحديثة، بمعلومات الإدريسى عن نهر النيجر، وعن السودان ومنابع النيل بصورة دقيقة، لدرجة تدعو إلى الإعجاب، ولذلك لم يكن غريبا أن يطلق عليه اسم «استرابون العرب». وأن يقال عن كتابه «أنه لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له، وأن ثمة بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتصلة بها».

ولقد ظل الأوروبيون يعتمدون على كتاب الإدريسى اعتمادا كبيرا لمدة ثلاثة قرون متوالية، كما أن الأوروبيين أخذوا عن العرب كثيرا من المصطلحات البحرية عن جغرافية الإدريسى.

وقد تميز كتاب الإدريسى عن غيره من كتب الجغرافيين المسلمين، بأنه عالمى الطابع، إذ شمل مناطق العالم القديم المتباينة بأقاليمها المختلفة، وأجزائها العديدة، وتضمن وصفا لمناطق كان



هو الرائد فيها بين الجغرافيين المسلمين، وعليه اعتمد اللاحقون فيما كتبوا. وبذلك يعتبر أعظم موسوعة جغرافية خرجت من صقلية فى القرون الوسطى وأوفى كتاب جغرافى تركه لنا المسلمون، بأشتماله على ما وصل إليه علم الأقدمين، إضافة إلى ما اطلع عليه الإدريسي نفسه، أو ما وصل إليه من دراسات ومشاهدات وخبرات وما رواه السياح.

ولقد استفاد الغرب من كتاب الإدريسي وغيره من الكتب الجغرافية، وعملوا على تقليد المسلمين فى رحلاتهم الجغرافية، وشجعهم على ذلك استعمال المسلمين للبوصلة البحرية فى الملاحة. ذلك أن الإدريسي أظهر فى بحث المواد التى اتصلت به وقدرها وتحرى الحقيقة فيها، رجاحة عقل، ورحابة صدر، وكشف عن فهم لبعض القضايا الهامة كإدراكه لكروية الأرض.

وقد جاء فى دائرة المعارف الفرنسية عن كتاب الإدريسي انه: "أوفى كتاب جغرافى تركه لنا العرب، وأن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى. ويذكر روم لاندو: "أن ما يعتقده كثير من الغربيين اليوم بأن ما يتعلق بكروية الأرض، بعض الأمور الجغرافية كاكشاف منابع النيل، بأنها من اكتشاف الغرب، وذلك ليس بصحيح. فلقد سبقهم إلى ذلك الإدريسي فى العصور الوسطى".

ويقول سيديو عن كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق": "على مدى ثلاثمائة وخمسين عاما، ظل رساموا الخرائط الأوربيون لا يفعلون شيئا سوى إعادة نسخ هذا الكتاب مع بعض التغييرات الطفيفة".

أما المستشرق الألمانية "ريغريد هونكه" فتقول عن الإدريسي وكتابه "نزهة المشتاق": "لم يعرف الناس فى أوروبا لزمن طويل الجغرافية المؤسسة على المراقبة والتجربة فلم تكن خرائط الأديرة ترسم الأرض طبقا لفهمهم للإيجل إلا على أنها قطعة من الأرض يحيط بها بحر عالمى، وفى وسطها تقع الجنة. ولقد كان الجغرافى العربى الإدريسي هو الذى مثل فى قصر ملوك صقلية دور المعلم للغرب، وليس بطليموس كما يدعى بعضهم.

وبقيت خريطة الإدريسي ثلاثة قرون تسد الفراغ فى الغرب، وتخدم محاولات فهم الخاصة فى هذا المجال كنموذج يهتدى به". ويقول ستانود كى الأمريكى: "ويمكن للمرء أن يقرر فى اطمئنان أنه لولا هذه الخبرات الملاحية التى ورثها كولمبس عن العرب، ولولا مفهوم كروية الأرض لما أقدم كولمبس قط على المخاطرة فى خوض الأطلنطى أو خطر له مجرد تصور فكرة هذه الرحلة.

ونظرا لاهمية الكتاب لدى الغرب الأوروبي ، فقد توافد على تحقيقه حديثا أكثر من ثلاثين مستشرقاً لدراسته وتحقيقه، واطهاره في مجلدين كبيرين، وشاركهم في هذا العمل الكبير بعض علماء المسلمين، وهذا في حد ذاته يدل على أهمية الكتاب العلمية.

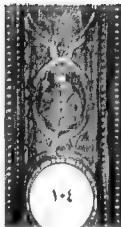
أما في مجال صناعة الورق، فقد عرف الأوروبيون تلك الصناعة عن طريق مسلمي صقلية، الذين كانوا يصنعونه من "البردى" الذي كان متوفرا في صقلية،

واشتهر

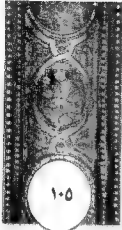
بجودته، كما ذكر ابن حوقل. بينما لم تعرف إيطاليا صناعة الورق إلا في سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م، ولم تعرفه ألمانيا إلا في القرن الثالث عشر الميلادي. ومعنى ذلك أن غرب أوروبا، لم يعرف صناعة الورق إلا بعد ظهورها بصقلية بفترة طويلة، وعن طريق صقلية أيضاً، وقد ساعد انتشار صناعة الورق وشهرة صقلية به على كثرة انتساخ الكتب المشهورة في المشرق والمغرب.

أما التاريخ الطبيعي، فإنه عُرف أول ما عرف في صقلية، حيث عهد فيريدريك إلى مترجمه "ثيودور" أن ينقل له رسالة عربية عن تربية البزاه، وانضمت هذه الترجمة إلى

ترجمة أخرى فارسية ليكونا أساس الكتاب الذي وضعه فردريك نفسه في ترويض البزاه، وبذلك يكون هذا التأليف أول ما عرف في مجال دراسة التاريخ الطبيعي.



رسم من كتاب خواص العقاقير على ورقة البردى الذي نشره المسلمون في أنحاء العالم



أما فى مجال الطب، فقد انتقل نظام اليمارستانات (المستشفيات) إلى صقلية فى عهد حكامها النورمان، ثم أنشأوا بعد ذلك مدرسة للطب فى بالرمو فى عهد فردريك الثانى، ثم انتقل ذلك النظام إلى غرب أوربا وتطور ليصبح فيما بعد جامعة الطب فى سالرنو.

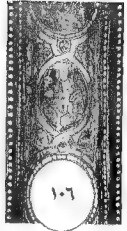
وإذا كانت مدرسة سالرنو قد أصبحت أول جامعة للطب فى أوروبا، فإن الفضل يرجع إلى الطب الإسلامى فيما أحرزته تلك المدرسة من شهرة. ذلك أن النورمان عندما استولوا على صقلية وجنوب إيطاليا- فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى- أحاطوا مدرسة سالرنو بما أحاطوا به بقية المؤسسات والدراسات العربية من رعاية وتشجيع.

ولقد ظهر أطباء مسلمون فى العصر النورماندى ومنهم الجغرافى المشهور الشريف الإدريسي الصقلى صاحب «نزهة المشتاق» وله فى ذلك مصنفات فى النبات والأعشاب منها «جامع الصفات لأشتات النباتات»، درس فيه كثيراً من النباتات وخاصيتها العلاجية كما كتب كتاباً آخر عرف باسم «الأدوية المفردة».

وهناك بعض الأسماء الصقلية فى مجال الطب من المسلمين، ولكن المصادر لم تعطينا تفصيلات عن حياتهم وأماكن إقامتهم أو رحلاتهم، وهل عاشوا فى صقلية أو خارجها، ومن هؤلاء: أبو سعيد بن إبراهيم الشريف الصقلى، الذى ألف كتاباً فى الطب أسماه: «المنجى فى التداوى من صنوف الأمراض والشكاوى».

الرازى أول من شرح القروود وجرب عليهم  
الأدوية وهذه النافذة الزجاجية التى حملت  
صورته من إحدى جامعات فرنسا





كما ظهر طبيب صقلى آخر فى فترة صقلية غير الإسلامية وهو أحمد بن عبد السلام الصقلى وله كتاب فى الطب عرف باسم «كتاب الأطباء فى الأمراض من الفرق إلى القدم»، وما جاء فيه قوله: «فإنى استخرت الله إن أكتب هذا التصنيف وهو مشتمل على مداواة الأمراض من الفرق إلى القدم بأدوية بسيطة قريبة لأن التركيب فى الأدوية صعب، وقل فيه التحقيق... وقد جعلته عشرين باباً وقد أبنته فى هذه الفهرست ليسهل على متناوليها:

الباب الأول: فى الأدوية المفردة النافعة من الصداع، والثانى فى أمراض العين، والثالث فى أمراض الأذن، والرابع: فى أمراض الأنف. والخامس: فى الفم، والسادس: فى أمراض الحلق والعنق. والسابع فى أمراض الكبد والمعدة، والثامن: الأمعاء، والتاسع: المسعدة وأدرامها، العاشر: الكلى، الحادى عشر: المثانة، الثانى عشر: فى الأدوية المخصوصة بأعضاء التناسل من الذكران، الثالث عشر: فى أمراض الرحم، الرابع عشر فى المفاصل، الخامس عشر: فى الجراحات، السادس عشر: فى الأدوية، السابع عشر: المخصوص بالثرة، الثامن عشر: فيما ينفع فى الحميات وفساد الهواء، التاسع عشر: فيما ينفع من الأدوية فى السموم ولسع الهوام. العشرون: فيما يعم نفعه البدن وفى خواص الأشياء، وهو فصلان، الأول فيما يعم نفعه للبدن، والثانى: فى خواص الأشياء التى يفعل بعضها فى بعض أفعال الخاصة.

وظهر طبيب صقلى آخر واسمه الطبيب الحاج عبد السلام بن إبراهيم الشريف الصقلى المتوفى بتونس سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م، ولم تشر المصادر إلى جهوده فى الطب. كما نبغ طبيب صقلى آخر واسمه محمد الشريف الصقلى، الذى ألف كتابين الأول فى الطب سنة ٧٨٩هـ / ١٣٩٥م، والثانى فى الصيدلة، وذكر به الخصائص الضرورية لكل من يريد تعاطى مهنة الطب فقال: «يجب أن يكون ذا ثقة، وشديد الحذر يخاف الله ثم عباده».

ومن توصياته فى الطب لأبنائه وتلاميذه قوله: «اعلم يا بنى أن من يتعاطى الصناعة عليه أن يتعلق بمبدأ راسخ ثابت لن يفارق ذهنه، وهو أن يريد لغيره ما يريد لنفسه، فلا تحقرن أدنى الأخطاء، فالأمطار الهاطلة تبدأ قطرة قطرة. وكذلك فاعلم يا بنى أنه ليس هناك جريمة أشنع من غش الناس واستغلال ثرواتهم وأموالهم وخاصة البائسين الذين يتألمون والذين يعوزهم العقل والقوة، فالبائس المسكين يحتمى بعلمك لتزيل عنه آلامه، وتخط له وصفة الدواء، فيضع كل آماله فى تلك الورقة معتقدا أن ما تحتوى عليه سيشفيه بعون الله، فالصيدلى يفوض أمره لك ويسلم الأدوية، ولكن كم يكن تصرفك خاطئاً أن تصرفت بدون دراية، وكم تكن مسئوليتك عظيمة، فلو كنت مكان المريض أكنت تحب أن تعامل هذه المعاملة، فيلعب بصحتك وتختلس أموالك. صدقنى يا بنى، وكن فطنا وحذراً؛ لأن غلطاتك تصبح من أخطر الأخطاء أمام الله، وإن هذه الكلمات





كافية لكل رجل فلا أضيف عليها شيئا فلتكن نصب عينيك كل يوم من الصباح إلى المساء فلا تنساها أبدا». وهو بذلك يرسم القوانين الطبية في مجال أدب الطب، لأطباء أوروبا في نهاية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي.

ومن التأثيرات الإسلامية على الدراسات الطبية في صقلية، أن اللغة العربية، كانت إحدى اللغات التي تستخدم في التدريس في مدرسة سالرنو الطبية. كما أن الأطباء في صقلية مارسوا التشريح، قال جول لابوم: «كان الأطباء العرب في القرن العاشر يعلمون تشريح الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة صقلية». وعلم التشريح يعتبر ضرورة للارتقاء بعلم الطب، ولم يتقدم العرب في هذا المجال إلا نتيجة لمؤثرات إسلامية، ذلك أن أطباء المسلمين مارسوا تشريح القردة، بينما لم يبدأ الأوروبيون بالتشريح إلا في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، عندما قاموا بتشريح الخنازير.

تلك هي بعض تأثيرات صقلية على أوروبا في الناحية العلمية، وليس ذلك كل شيء. وذلك يرجع إلى أن صقلية عندما كانت معبرا من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا لم يقتصر تأثيرها على أوروبا فيما أنتجه الصقليون أنفسهم، بل تعدى ذلك إلى غيره من إنتاج البلدان الإسلامية الأخرى. فالمهم أن صقلية كانت معبرا إلى أوروبا وليس المهم أن تكون صقلية بلد إنتاجه.



أ- المصادر:

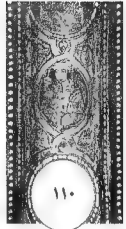
- ١- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) - الحلة السراء. تحقيق حسين مؤنس، جزاءن، القاهرة، ١٩٦٣ / ١٩٦٤ م.
- ٢- الإدريسي، محمد بن عبد العزيز الشریف (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) - مختصر كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ط. روما، ١٩٥٢ / ١٩٥٣ م.
- ٣- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر «المعروف بالبلاذري» (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) - كتاب فتوح البلدان. نشره ووضع ملاحقه وفهارسه الدكتور صلاح الدين المنجد، نشر النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦ / ١٩٥٧ م.
- ٤- ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف «بابن أبي دينار» - كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. مطبعة الدولة التونسية، تونس، ط. أولى، ١٢٨٦ هـ.
- ٥- ابن رسته، أبي على أحمد بن عمر - كتاب الأعلام النفيسة (ومعه كتاب البلدان لليعقوبي من ص ٢٣٢ - ٣٧٣)، نشر دي غويه، بريل، لندن، ط. ١٨٩١ م و ١٩٦٧ م.
- ٦- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله البشاري (ت ٣٨٧ هـ) - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. نشر دي غويه ضمن المجموعة الجغرافية العربية (ج ٣ من المجموعة)، بريل، لندن، ١٨٧٦ م و ١٩٦٧ م.

ب- الكتب الحديثة العربية والمعربة:

- ٧- إبراهيم أحمد العدوي «دكتور» - الأمويون والبيزنطيون «البحر المتوسط بحيرة إسلامية». ط. ثانية، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- ٨- المسلمون والجرمان «الإسلام في غرب البحر المتوسط». ١٩٦٠ م.
- ٩- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية. القاهرة، ١٩٥١ م.
- ١٠- الأساطيل العربية في البحر المتوسط. القاهرة، ١٩٥٧ م.



- ١١- إحسان عباس- العرب فى صقلية. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ١٢- أرشيبالد، لويس- القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، القاهرة، مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٦م.
- ١٣- أسد رستم- الروم «فى سياستهم وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب». دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٥ (جزءان فى مجلدين).
- ١٤- إسماعيل سرهنك- حقائق الأخبار عن دول البحار. بولاق، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٢ و ١٣١٤ و ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م (ثلاثة أجزاء).
- ١٥- أمارى، ميخائيل Amari, Michael- المكتبة العربية الصقلية. «نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع» حققها وجمعها المستشرق ميخائيل أمارى، ط. معادة بالأوفست، مكتبة المثنى، بغداد، (عن طبعة ليبسك)، ١٨٥٧م.
- ١٦- حتى، فيليب - تاريخ العرب (مطوّل). نقله إلى العربية إدوارد جرجس وجبرائيل جبور، دار الكشاف للنشر والطباعة، بيروت، ١٩٦١م.
- ١٧- حسن إبراهيم حسن «دكتور»- تاريخ الإسلام السياسى... النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٧ (أربعة أجزاء).
- ١٨- تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب. النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- ١٩- سعيد عبد الفتاح عاشور «دكتور» - الحركة الصليبية. الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م. (جزءان).
- ٢٠- السيد البار العرينى «دكتور»- الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م). النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٢١- صابر محمد دياب: سياسة الدولة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط. عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣.
- ٢٢- فازيليف، أ.، أ. - العرب والروم. ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٠م.



٢٣- منز، آدم - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م (جزءان).

٢٤- محمد جمال الدين سرور «دكتور» - سياسة الفاطميين الخارجية . دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

٢٥- مختار باشا إلهامى «اللواء المصرى» - كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقطبية . ط . أولى، ١٣١١هـ / ١٨٩٣-١٨٩٤م.

### جـ- المقالات والأبحاث:

٢٦- حسن إبراهيم حسن

-The Relations Between Fatimide in North Africa and the Ummayyads In Spain During the 4th Century A.H (10th Century A.D).

منشورة بمجلة كلية الآداب، جـ. القاهرة، العدد العاشر، ديسمبر، ١٩٤٨م.

٢٧- حسين مؤنس "دكتور"- المسلمون فى حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، عدد مايو ١٩٥١م.

٢٨- أحمد مختار العبادى- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، المجلد الخامس، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

### د- المراجع الأجنبية:

1- Camb. Med. History, England, 1913

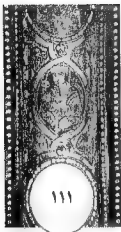
2- Encyc. Brittanica. Ed. By William Benton. Chicago, 1960, 24 vols. + vol. Of world Atlas.

3- Aly, Mohammed Fahmy - Muslim Naval Organization in the Eastern Mediterranean from the 7th Century A.D.

4-Muslim Sea-Power in the Mediterranean.

5- Benjamin of Tudela - The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela. Tr.&Ed. By Asher, New York, 1840 (2 vols.)

6- Goitein, S.D. - Studies on Islamic History and Institution. Leyden, Brill, 1968.



## المحتويات

١	مقدمة
٤	• التاريخ السياسى لجزيرة صقلية
٤	١ - فى العهد البيزنطى
٧	٢ - الفتح الإسلامى لصقلية .
١٧	٣ - علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية .
٢٩	٤ - سقوط صقلية فى يد النورمان وانتهاء السيادة الإسلامية
٤٢	• أحوال المسلمين فى صقلية النورمانية .
٤٤	• روجر الأول .
٤٦	• روجر الثانى .
٤٧	• ولیم / غليام الأول .
٥٥	• تانكرد .
٥٧	• الحياة الاقتصادية فى صقلية الإسلامية :
٦٣	• الحياة الاجتماعية فى صقلية الإسلامية :
٦٤	١ - العرب .
٦٧	٢ - البربر .
	٣ - الفرس .
٦٧	٤ - الرقيق .
	٥ - وفى صقلية من السكان المسلمين من كان يتنسب إلى المكانة أو
٦٧	المهنة .



- ٦٩ ٦ - النصارى .
- ٦٩ ٧ - اليهود .
- ٧٠ • الحياة الدينية فى صقلية :
- ٧٧ • الحياة العلمية فى صقلية :
- ٧٧ ١ - الكتاب .
- ٨٠ ٢ - المساجد .
- ٨٣ ٣ - دور العلماء فى صقلية .
- ٨٤ ٤ - دور الكتب .
- ٨٤ • العلوم والمعارف فى صقلية :
- ٨٤ أ - علوم القرآن .
- ٨٧ ب - علم الحديث .
- ٨٩ ج - علم الفقه .
- ٩١ د - علم الكلام .
- ٩٢ هـ - علم التاريخ .
- ٩٣ و - علم التصوف والزهد فى صقلية .
- ٩٦ ز - العلوم الطبيعية .
- ٩٨ • أثر صقلية الإسلامية على أوروبا :
- ١٠٠ ١ - المشرق الأدنى والحروب الصليبية .
- ١٠٠ ٢ - الأندلس .
- ١٠١ ٣ - صقلية كمعبر للحضارة الإسلامية .
- ١٠٨ • المصادر والمراجع :
- ١١١ المحتويات .

## **Abstract**

This work dwells upon the history of Sicily from the Islamic conquest in 212H. till the end of Islamic rule in 484 H. The relations between this island and the Fatimid, Abbasid, and Ummayyad Caliphates are clarified.

On the other hand, the author handles the relations of Sicily with the Western Powers, involving the Byzantine State, the Italian City States, and the Franks in Gaul. The cultural, economic, and social achievements of the Muslims in Sicily are equally highlighted.

**Dr. Saber Diab**

## Encyclopaedia Introduction

History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

**Dr. Said Abdel Fattah Asshour**



# CONSULTATIVE COMMITTEE FOR: THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

---

<b>P. Said Abd El-Fattah Ashour</b>	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Cairo University. Chairman of the Arab Historians Union.	<b>Chairman</b>
<b>P. Adel Hassan Ghoneim</b>	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	<b>General Coordinator</b>
<b>P. Abd El-Halim Nur Eldin</b>	Professor of Ancient Egyptian Language - Faculty of Archaeology - Dean of the Faculty of Archaeology, Fayyoun Branch, Cairo University. Director of the Centre of Calligraphy, Bibliotheca Alexandria.	<b>Rapporteur of Ancient History Series</b>
<b>P. Ishak Ebeid</b>	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Ain - Shams University	<b>Rapporteur of Medieval History Series</b>
<b>P. Essam El-din Abd El-Raouf</b>	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	<b>Rapporteur of Islamic History Series</b>
<b>P. Gamal Zakariya Kassem</b>	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	<b>Member</b>
<b>P. Attiya Al-Qoussy</b>	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	<b>Member</b>
<b>P. Saber Diab</b>	Professor of Islamic History - Dar El-Ulum Faculty, Fayyoun Branch, Cairo University.	<b>Member</b>
<b>P. Raafat Abd El-Hamid</b>	Dean of the Faculty of Arts (Formerly) - Ain - Shams University & Professor of Medieval History.	<b>Member</b>

**Editing Directors:** Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary

Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

**Committee Secretary:** Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

**Designed by** : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

## **Correspondence & Communications:**

### **Dar El-Fikr El - Arabi**

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

[www.darelfikrelarabi.com](http://www.darelfikrelarabi.com)

INFO@darelfikrelarabi.com

**The Encyclopaedia of History,  
Archaeology and Civilization**

**Medieval History**

**7**

# **Sicily between East and West**



**Dr. Saber Diab**

**Publisher**

***Dar Al-Fikr Al-Arabi***

94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo

tel : 22752794 , Fax : 22752735

[www.darelfikrelarabi.com](http://www.darelfikrelarabi.com)

[INFO@darelfikrelarabi.com](mailto:INFO@darelfikrelarabi.com)



The Encyclopedia  
of **History,**  
Archaeology  
and Civilization

Medieval History

7

Sicily Under  
Islamic Rule:  
From The Norman  
To Arab Conquest



Bibliotheca Alexandrina



0666363

Dr. Saber Diab

